

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

تفسير القسم الثاني من سورة النساء (من الآية 44 إلى الآية 114)

## تمهيد

### المنهج الإسلامي قوة متنامية وحصانة متجددة

تتميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم نشأة وتطورا وحماية ونظام تدبير عام، ولئن كان مبنى الأمم غير الإسلامية في نشأتها ونظام تدبيرها على الارتباط بالعرق والأرض والمصالح أو بعض المعتقدات الفاسدة والقوانين الوضعية، وكان قيامها بالغلبة السلطانية أو بسطوة الانتخابات الديمقراطية المعززة بالقوة والقهر، وحماتها وبقاؤها بسطوة الاستخبار والتجسس والسلاح، فإن الأمة الإسلامية غنية عن ذلك كله لأنها تحمل في صميم تكوينها مقومات قوتها ومناعتها وانتشارها ووضوح هدفها واستقامة طريقته، كل ذلك لأنها في مبدأ أمرها غرست بذرة إيمانية في قلوب الرجال بمختلف أعراقهم وألوانهم وألسنتهم ومصالحهم وأوطانهم، ثم رمت هذه البذرة جذورها في الأرض وأخرجت شطأها ومدت فروعها في الفضاء الرحب، تنشر الفياء والظلال، وتفيض بالثمار والغلال، وهي بذلك مائدة لله في الأرض مهداة بخير عميم، وتعايش حر كريم، وعدالة ومساواة، لا خوف ولا غبن ولا ظلم ولا غصب، للمؤمن وغير المؤمن، للأبيض والأبيض والأحمر على السواء.

هذه الأمة الراشدة كما وضع لها رب العزة في الكتاب والسنة نظاما للتدبير العام والحياة السوية، وضع لها أيضا منهجا لتوفير الأمن المادي والمعنوي، والحماية من كل أسباب الاستضعاف بالعجز أو الذلة أو الظلم، سواء في علاقات أفرادها ببعضهم، أو علاقتها مع غيرها من الأمم والشعوب. وطالما تمسكت بهذا المنهج الرباني لا ينالها حيف أو ضيم أو فتنة، وارتقت في مراتب العز والقوة والتمكين والأمن، فإن حادت عما هداها إليه ربها كان الضعف

والاستضعاف والذلة والصغار؛ ولنا النموذج الأوفى في جيل الصحابة الأول وقد كانوا مستضعفين في مكة لقلّة عددهم وقلّة ناصرهم فنقلتهم العقيدة ومنهجها للحياة إلى القوة والأمن والغلبة، قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الأنفال 26، كما لنا العبرة في أمم كفرت بأنعم الله فانقلبت قوتها ضعفا وأمنها خوفا، قال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل 112، ولنا التحذير الواضح البين من قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا ضن الناس بالدينار والدرهم و تبايعوا بالعينة وتبعوا أذناب البقر و تركوا الجهاد في سبيل الله أدخل الله تعالى عليهم ذلا لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم).

ولئن أمر رب العزة تعالى أمة الرسالة المحمدية بأن تتحصن ضد الهوان والاستكانة وأن تكون عصية على الاستضعاف بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران 139 ، فإنه تعالى قد وضع لها ما يحقق ذلك في سورة النساء، فكان القسم الذي سبق تفسيره منها (من الآية 1 إلى الآية 43) منهجا لحماية علاقة أفراد المجتمع المسلم من استضعاف بعضهم لبعض أو ظلم فئة منهم لفئة، أما القسم الثاني (من الآية 44 إلى الآية 113) فقد وضع منهجا عاما لحماية الأمة كلها من أي استضعاف مكتسب داخليا بتصرفات بعض أهلها، أو خارجيا بمكر من أعدائها.

لقد حوى هذا القسم بجميع آياته الكريمة من التعليمات الربانية بصريح العبارة وواضح التلميح والإشارة ما هو كفيل بقيام أمة عزيزة الجانب مهيبة الجناح عصية على الذلة والاستضعاف، كما احتوى على ثلاث آيات بينات لم يرد مثلها في غير سورة النساء، إحداها ترحض على الدفاع عن المستضعفين الراضين للظلم، واثنان تنددان بالاستضعاف وتعدان الركون إليه ظلما للنفس مؤديا إلى جهنم، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ النساء 75. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ

وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ  
وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿النساء 98/97﴾.

إن الأمة قد تنتابها حالات من الشعور بالضعف أمام من يتربص بها الدوائر من داخل حصونها أو من خارجها، وقد تنهار مقاومة الضعفاء منها أمام ضغوط الأقوياء من أصحاب المصالح، وقد يستضعف المرء نفسه معتقداً أو متوهماً أنه لا يملك قوة للشباب على الحق والتصدي للباطل ومواجهة العدو، ولكن هذا كله لا يقبل عند الله مبرراً للركون إلى الاستضعاف والذلة والخنوع والاستسلام للظلم والاستجابة لرغبات الأقوياء المتسلطين، أو عذراً للوقوع في الشرك والكفر وإنكار المعلوم من الدين بالضرورة، أو خيانة الأمة أو التجسس عليها أو موالاة أعدائها.

إن النتيجة الحتمية في الدنيا لهذه المشاعر الانهزامية في الفرد والجماعة ليست إلا العجز والشلل والخضوع والانقياد للعدو، أما عاقبتها في الآخرة فقد بيّنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿3﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿33﴾.

وهذا الجزء من سورة النساء يقدم لنا علاجاً شافياً لكل حالات الاستضعاف المادي والمعنوي الحقيقي والمتوهم، مما قد ينتاب الأمة ويعوق تقدمها ويعرقل طريقها، وهو في نفس الوقت جولة أخرى متممة لما سبقه من أجل تثبيت الملامح الإسلامية في حياة المسلم وتطهير المجتمع والنفوس من رواسب الجاهلية وأدرانها.

تبدأ هذه الجولة العلاجية الوقائية بالتذكير والتنبيه والتحذير، تذكيراً بالقاعدة الأساس التي ينبنى عليها أمر الأمة في الدنيا والآخرة وهي العقيدة، وتنبيهاً إلى أهمية الاشتغال بالدعوة إلى الإسلام والاستعلاء بالإيمان وأثر ذلك في قوة الأمة وحمائتها وتوسيع رقعتها، وتحذيراً من الشرك والمشركين ومختلف الفئات المتربصة التي عرفت قوة الإسلام في نفوس المسلمين وسر انتصاراتهم فأخذت تحاول إضلالهم حسداً لهم ومكراً بهم وإضعافاً لفهمهم، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ النساء 45/44 ..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا  
عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ  
بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ النساء 48/47 .

وبعد الإشارة إلى آفة الغرور وتزكية النفس وما في ذلك من حرم للمروءة وفتنة للصف وإحباط  
للعمل عرج الوحي الكريم على أعظم قواعد حماية البيضة وقمع الفتن وتوحيد الصف وهي إقامة  
العدل وأداء الحقوق وطاعة الله وطاعة الرسول وقادة الأمة الموكلين بتنفيذ قراراتها وتدبير أمرها  
العام، وردُّ الاختلاف في حالات النزاع والفتنة إلى الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ  
أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ  
إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ  
تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ  
تَأْوِيلًا ﴾ النساء 58 / 59 .

ثم يمضي القرآن في عرض الأساليب التي يلجأ إليها المنافقون لتخذيل الصف المسلم  
وتوهينه، وكشف دواخل قلوبهم وبيان أن الإيمان الصادق يقتضي الطاعة المطلقة لما أتى به  
الرسول صلى الله عليه وسلم وحكم به والتسليم لما قضى به .

ويعقب بواجب جهاد الدفع والمدافعة عن حياض الأمة أرضا وشعبا ومستضعفين محتاجين  
إلى النصرة والتخلص من نير البغي واستبداد الأقوياء الظلمة، مميزا بين صنفين من القتال، صنف  
يراد به نصرة الحق وأهله وصنف يراد به نصرة الباطل وأوليائه. ومبينا أن الموت الذي يفر منه  
الجناء حق يدرك المرء بأجله لا يرده حذر ولا يصده جبن ولا يعجل به قتال، وخير للمؤمن إذا  
جاءه أمر من الأمن أو الخوف أن لا يفتن به الصف أو يوهن به العزائم وإنما يرده إلى قادة الأمة  
وحكمائها الذين يستنبطون العبرة ويضعون الحلول الناجعة .

ثم ينتقل الوحي الكريم إلى معالجة حازمة مفصلة لمعضلة المنافقين في الصف المسلم وكيفية معاملتهم بما يجمع مكرهم ويكف بأسهم ويرد كيدهم ويحفظ للأمة أمنها وقوتها وسلامة صفها من الوهن والضعف والاستضعاف. ولكنه يعقب بضرورة التبين وعدم الإقدام على قتل المؤمن خطأ أو للشك في إيمانه، أو على قتل ذوي العهود والمواثيق من غير المسلمين، أو على القتل العدواني مطلقاً، مرتباً على ذلك ما يستوجبه من كفارة ودية وتوبة، أو يؤدي إليه من غضب الله وخلود في جهنم.

وبعد التحريض على الجهاد بالمال والنفوس وبيان فضل المجاهدين على القاعدين، يعرض أحكام الاستضعاف المبرر وغير المبرر، وما يقتضيه من استنفار للقوة ونصرة للمستضعفين أو هجرة بالدين تغييراً للمواقع وتحيزاً إلى فئة نصره وولاية، وما يستتبع ذلك من أحكام الصلاة في السفر والأمن والخوف، وأحكام الحرب وقوانينها، ويختتم بضرورة الحذر من الخونة والمتآمرين وعدم المجادلة عنهم والتماس الأعداء لهم لعظيم ما يرتكبونه في حق الدين وأمة الإسلام ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾ النساء 107/109 .

كل هذا ضمن منهج متكامل لتربية الأمة وتأهيلها، وترقية حكمتها وتعميق خبرتها في التعامل مع مستجدات البناء ومتغيرات الأحوال، وتطهير الصف من رواسب الجاهلية وتأثيرات المعسكرات المعادية، وتقوية مناعته ضد عوامل الضعف والاستضعاف، جينا كانت هذه العوامل أو استرخاء أو غفلة أو حرصاً على مكاسب دنيوية أو انخداعاً لمنافق وخائن، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء 113 .

## ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ "محمد 38"

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (50) ﴾

صراع الحق والباطل لا يخبو أوارُهُ منذ بدء البشرية في الأرض وقد خاطبها الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فاطر 6، منذئذ وطائفة من أتباع الرسل عليهم السلام يعادون الشيطان وأولياءه بطاعة الله، وزمرة من المارقة والفسقة يعادون الله وأولياءه بطاعة الشيطان، وبين الفريقين جولات وصولات ينتصر فيها الحق فيعم الخير والأمن والسلام، وينتفش في بعضها الباطل فتعم الفتنة والفساد والظلم، إنه الاختبار الإلهي للناس في الدنيا، كي يفوز من فاز عن بينة ويخيب من خاب عن إصرار ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ هود .119/118

ولئن كان أصحاب الحق يدعون إليه في ظروف القوة والضعف دائما بالحكمة والموعظة الحسنة من غير إكراه أو تزييف أو تلفيق أو تحايل، فإن أرباب الباطل لا يكتفون بما لديهم من ضلالة حين يستشعرون في حزبهم القوة أو يستقون بذي سلطان، وإنما يحاولون فرض ضلالهم على المسلمين بالحديد والنار والتهديد والترهيب والوعيد.

هذا سبيل المجرمين في كل عصر، ومن قبل مُشط المؤمنون بأمشاط الحديد وأحرق أصحاب الأخدود، وقال فرعون وهو في قمة طغيانه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر 29، وفي عصرنا هذا وقد استأسد الباطل وانتفش الطغيان وتجر كبار مجرميه، تبذل الجهود لصرف المؤمنين الصادقين عن مقتضيات عقيدتهم وثوابتها والمعلوم منها بالضرورة، ترهيبا بالسجون والمنافي والقتل أو ترغيبا بالمناصب والأموال، أو تمويها على البسطاء والسذج بالتأويل الفاسد ودواعي المصلحة والتطور، تختلف صور الضلال والإضلال في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع، ويبقى الهدف واحدا هو أن تغيب عن الأمة وقلوب أهلها معالم الدين، وأن يفسح مجال التسيب عن تعاليمه وشرائعه. لذلك لم يكد الوحي يكمل منظومة العلاقات العامة داخل الأسرة المسلمة بما يحفظ تماسكها وحقوق أعضائها وضوابط تعاشيهم رجلا سَلَمًا لرجل، لا يستضعف أحد منهم أخاه ولا تستطيل فئة منهم على فئة كما سبق في القسم الأول من سورة النساء، حتى اتجه لبناء وجه آخر لهذه العلاقات متعلق بحماية كيان الأمة من أي استضعاف مكتسب داخليا بتصرفات بعض أهلها، أو خارجيا بمكر من أعدائها، وبدأ بالتحذير من شوكة مُنَزَّرَعَة في الجسم الإسلامي لا هم لها إلا توهين العقيدة في قلوب المسلمين وردهم إلى حالة من الاستضعاف تجبرهم على ترك الإسلام والردة عنه. من أجل ذلك خاطب الحق سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ﴾، ولفظ: ﴿تَرَ﴾ فعل مضارع مجزوم بحرف "لم"، من "الرؤية" بالضم، وهي إدراك المرئي، وتكون بحاسة العين كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يوسف 31، أو بالوهم والتخيل كقول فرعون لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ غافر 29، أو بالعقل والقلب كقوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ النجم 11، أما الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بهذا السياق فهو استفهام إنكاري وتعجبي وتقريبي، إنكاري لحال أعداء الدعوة وضلالهم في عصر البعثة وفي كل زمان، وتعجبي من كونهم من أمة التوراة والرسالة الموسوية وقد أوتوا نصيبا من الكتاب، ومع ذلك صدرت منهم أفعال وأقوال بعيدة كل البعد عن مرجعيتهم الدينية التي يدعون، وتقريبي لما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم، رؤية بالعين أو مخالطة في المجتمع أو إخبارا من الله تعالى، وما علمه من حالهم

وتصرفاتهم وما واجهوه به من إنكار للرسالة والوحي، وتقدير ذلك: قد رأيت يا محمد ببصيرتك وبصرك إلى ما طبعت عليه طائفة أوتيت ﴿نَصِيْبًا﴾ بعضا من الكتاب وأضاعت بعضه الآخر، إشارة إلى قوله تعالى في سياق آخر: ﴿أَفْتُمُونَنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، البقرة 85،

أما الكتاب في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ فهو التوراة لأن اليهود هم الذين كانوا مع المسلمين بالمدينة، وإن كانت الآية تعني كذلك أصحاب الإنجيل، لأن كلا من الطائفتين نسيت حقا مما ذُكرت به ولم يبق بين يديها من كتابها بعد أن تدخلت أيدي الأحرار والرهبان في نصوصه حذفًا وتحريفًا وتأويلًا، إلا نصيب قليل أهملوا العمل بأكثره، قال تعالى عن اليهود: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ المائدة 13، وقال عن النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ المائدة 14.

ثم أخذ الوحي الكريم من خلال مخاطبته النبي صلى الله عليه وسلم يبين للمسلمين بعض ما ارتكبه أهل الكتاب بعد أن نسوا أحكام دينهم وحرفوها فقال عز وجل:

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ﴾، ولفظ ﴿يَشْتَرُونَ﴾ من أصل: شرى يشري، من أفعال الأضداد، يفيد الشراء كما يفيد البيع، يقال: شريت الشيء واشتريته، إذا أخذته من صاحبه بثمنه، وشريته إذا بعته، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يوسف 20، والاشتراء كما ورد في الآية مجاز في الاختيار والإيثار، لأن المشتري هو آخذ البضاعة المرغوب فيها من بائعها.

أما الضلالة والضلال فبمعنى واحد هو عدم الاهتداء للصواب من الاعتقاد أو العمل، من أصل الفعل: ضلَّ الدارَ والمسجدَ يضلُّ ويضلُّ، إذا لم يهتد لهما، وأضاع معالم طريقهما، ورجل ضلَّيلٌ ومضلَّلٌ، إذا كان صاحب ضلال شديد يصر عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرُ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الأنعام 74، وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء 136.

وقوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ﴾ فيه إضمار تأويله يشترون الضلالة بالهدى أي يستبدلون الضلالة بالهدى ويؤثرونها على الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى

فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿البقرة 16﴾. ولا شك أن إيثارهم الضلالة على الهدى لم يكن عن جهل منهم بالحق، ولكن مصالحتهم الدنيوية رئاسة وجاها ومالا حملتهم على المتاجرة بالدين، والتمويه على العامة بتزييف نصوص التوراة وتبديلها تبعا لأهواء الأتباع وشهواتهم، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ البقرة 79. كما أن حسدهم للمسلمين وحقدهم على النبي صلى الله عليه وسلم جعلهم يصرون على هذا الباطل ويسعون لبثه في نفوس المسلمين وعقولهم، من أجل إضعاف شوكتهم وصددهم عن العقيدة ورددهم عن الدين ، ولذلك عقب الحق سبحانه بقوله:

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ ولفظ السبيل من أصل واحد هو السين والباء واللام، ويدل على امتداد شيء أو إرساله من علو إلى سفلى، ومنه يقال: سبلت السُّتْرَ، وأسبلت السَّحَابَةَ ماءها، والسبيل الطريق الذي فيه امتداد، يذكر ويؤنث كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الأعراف 146، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يوسف 108، وقد يرد لفظ "السبيل" مطلقا فيدل على سبيل الحق، كقوله تعالى: ﴿بَلْ زَيْنَ اللَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ الرعد 33، وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ عبس 20.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ معناه أن اليهود بعد أن خرجوا عن الإيمان إلى الكفر يسعون بتحريف كلام الله إلى إضلال المسلمين ليستروا معهم في الكفر، ولا يختصوا بالحق فتقوى شوكتهم به، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ النساء 89، وقد بين تعالى في موضع آخر أن هذا المكر من اليهود كان حسدا وغيظا بعدما عرفوا نصاعة الحق الذي نزل على المسلمين، وهو قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ البقرة 109، كما بين في آية أخرى أن سعيهم هذا لن يفلح إلا في إضلال أنفسهم، قال عز وجل: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ النساء 69، وليس من عاقبة لفعالهم

هذا إلا أن يضيفوا إلى وزر ضلالهم أوزارَ محاولاتهم إضلال غيرهم، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ النحل 25.

وتأكيدا لخطورة هذا المكر من اليهود وقد كان بعض الأوس والخزرج يثقون بهم ويستنصرونهم عقب تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وهي آية خبرية تضمنت تحذيرا منهم وتبئها إلى خطرهم، وتوبيخا على الاستماتة إليهم، وأنه عز وجل أعلم من المسلمين بأعداء الدين، وبما يسرون وما يعلنون، وما يبيتون ويمكرون.

ولما كان اليهود في عصر النبوة من بني قينقاع وقريظة والنضير وخيبر، مبثوثين في المدينة وما حولها، ولهم من العدد والعدة والعلاقات التجارية والمصاهرات مع أحياء العرب وقبائلها، ما يجعل كلمتهم مسموعة وخطرهم لا شك فيه، وكانت عداوتهم للمسلمين وسوء نواياهم مما قد يشير الرعب والتوجس في بعض القلوب حديثة العهد بالإسلام، عقب تعالى تطمينا لنفوسهم وتبئنا لقلوبهم بقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: اكتفوا بالله وليًّا لكم، تعتمدون عليه وتفوضون أموركم إليه، ومن كان الحق سبحانه وليه لم ينله مكروه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصركم على كل عدو ظاهر وخفي، فثقوا بولايته ونصره، ولا تتولوا أو تستنصروا غيره، واعبدوه وتوكلوا عليه، ولا تُبالوا بما يتوعدونكم من شر أو يعدونكم من خير.

لقد نزلت هذه الآيات الكريمة كما ذكر ابن عباس في حبرين من أحبار اليهود كانا يأتیان رأس المنافقين عبد الله بن أبي رَهْطَه فيشيطانهم عن الإسلام، وهو أسلوب للوسوسة والشيطنة والتمويه والتشكيك يتبعه اليهود كلما جبهتهم دعوة الحق، سواء عند مبعث عيسى عليه السلام أو مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما زالت الفئات الضالة المعادية للإسلام تمارسه حاليا في كل أقطار المسلمين، كلما وجدوا جماعة متشبثة بالعقيدة السوية المتجلية في سلوك سوي، سلطوا عليها سهام التشكيك والتشويه وحرب الدعاية، فإن لم يفلحوا حرضوا عليها الظالمين فطاردها في الآفاق.

لم تصرح هذه الآيات بصنف أهل الكتاب الذين تعدّهم أعداء شديدي المكر بالمؤمنين، وإن كان السياق يشير إلى اليهود، ولكن ما يأتي بعدها لا يكفي بذلك بل يمضي مصرحا بهم

ومسترسلا في وصف أحوالهم وتصرفاتهم، التي صارت مدرسة في الكيد والمكر تتوارثها أجيالهم على مر الحقب، وفي ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ وحرف "مِنْ" لبيان جنس الأعداء في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ الذين هادوا وهم اليهود، قيل لهم ذلك لقولهم بعدما عبدوا العجل: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ الأعراف 156، أي تبنا ورجعنا، ثم ذكر أربع صفات لهم في تعاملهم مع الوحي ومعاملتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وهي:

أولا: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ وتحريف الكلم الذي كان اليهود يقومون به في التوراة والقرآن وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم هو الميلُ به عن معناه إلى معنى آخر باطل للتضليل، وقد جرت عاداتهم في تحريف كلام الله تعالى وأحكام دينه على أربعة أساليب، أن يؤولوا معناه عند شرحه للعامة، وأن يحذفوا منه ما لا يناسب أهواءهم ومصالحهم، وأن يغيروا بعض ألفاظه بقريب منها غير مطابق مثل تحريفهم الرجم بوضعهم الحد مكانه، وأن يغيروا مواقع ألفاظه بما يغير المعنى المقصود، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ المائدة 41. وهي أساليب ما زال أعداء العقيدة الإسلامية لحد الآن يستعملونها في تناولهم لنصوص الكتاب والسنة، وفي تحليلاتهم لإنتاج الفقهاء الصادقين، فكثيرا كان أو فقهاء أو أدباء، من أجل التمويه والتشكيك والتشويه وصرف قلوب الأغرار عنه، وغير بعيد عن الذاكرة صدور طبعات مبتورة من القرآن الكريم، وتفسير علمانية له، وحملات قذف وقذح وتهميش وإقصاء على كل من ظهر له سهم في الصحوات الإسلامية المعاصرة.

ثانيا - ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ يقولون في كل أمرٍ مخالفٍ لمصالحهم وأهوائهم بلسان المقال سمعنا، وبلسان الحال يقولون عصينا، عنادا منهم وتجاهلا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد 16.

ثالثا - ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وعندما يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وسلم تبلغ بهم الوقاحة والصفاقة مداها فيجعلون طلبهم سماعه لهم مقرونا بالدعاء عليه بالصمم، يقولون له عند مراجعته في أمر الإسلام: اسمع منّا، ويُعقبون ذلك بقولهم: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ يوهمون أنّهم قصدوا الظاهر المتبادر من قولهم: غير مُسْمَعٍ، أي غير مأمور بأن تسمع، على عادة العرب في قولهم: "افعلْ غيرَ مأمورٍ"، وهم يقصدون قول: "لا أسمعك الله"، أو "لا استجاب الله دعاءك".

رابعا - ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسِتِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ أي: يستطيون السخرية بالرسول صلى الله عليه وسلم والطعن في رسالته، فيشتمونه عند مخاطبتهم إياه بلفظ "راعنا" الذي ظاهره طلب المُرَاعاة، أي: أُرْعِنَا سَمْعَكَ، ولكنهم يلوون به ألسنتهم فيتحول إلى كلمة بالعبرانية معناها الرعونة، وعندما يخرجون من عنده ينقلون تضاحكا لأنهم شتموه بحضرتة وهو لا يشعر، ويقولون لإخوانهم ومن يثق بهم من حديثي العهد بالإيمان: "لو كان محمّد رسولا لعلم ما أردنا بقولنا"، ولذلك فضحهم الله بهذه الآية ونظائرها. وأسلوب الاستهزاء هذا ما زال العمل به جاريا لدى أعداء الإسلام في مخاطبتهم الفقهاء والدعاة بألفاظ ظاهرها الاحترام وباطنها الاستخفاف والسخرية كأن يصفونهم بالشيخ بنطق الشين مكسورة، يقصدون شيخو الطرب.

ثم بعد ذلك قرر الوحي الكريم الأدب اللائق بالأسياء من الرجال ومن لهم نصيب من الكتاب، وما يؤدي إليه من هداية إلى الحق وجزاء أوفى عند الله، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي لو أنهم تمسكوا بالرفق والأناة والحكمة وقالوا:

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وقالوا: ﴿أَسْمَعُ﴾ بدل: ﴿أَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وقالوا: ﴿انظُرْنَا﴾ بدل: ﴿راعِنَا﴾ لكانت أقوالهم أصوب وأعدل وأقرب إلى الخير وأنسب لمن لهم دراية ببعض الكتب المنزلة. والآية في نفس الوقت تعليم للمسلمين أدب الحوار استماعا وإجابة واستفهاما، وتجنبنا للسخرية واللمز والهمز، مما أرشد إليه القرآن الكريم في سياقات كثيرة من سوره، وأورده السدي في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية، قَالَ: (كَانَ رَجُلَانِ مِنَ الْيَهُودِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: مَالِكُ بْنُ الضَّيْفِ وَالْآخَرُ: رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ، إِذَا لَقِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، قالوا له وهما يكلمانه: راعنا سمعك، واسمع غير مسمع، كقولك: اسمع غير صاغر، فظن المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم وقال أصحاب النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنبي مثل ذلك، فنهوا عن ذلك، فأنزل الله جَلَّ وَعَزَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة 104).

إلا أن السلوك السوي بعيد عن أخلاق اليهود، يحول بينهم وبينه ما حاق بهم من لعنة إلهية لصيقة بهم في كل مصر وعصر، ولذلك استدرك الوحي بقوله تعالى:

﴿وَلَكِنْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ طردهم الله من الهداية والرحمة بسبب إصرارهم على الكفر، ثم نفى عن أكثرهم حقيقة الإيمان فقال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وصدق الله تعالى، فلم يدخل في الإسلام في زمن البعثة وعلى مر القرون الا قليل من اليهود، منهم عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، أما أغلبهم فقد ظلوا حرباً على الإسلام والمسلمين منذ كانوا في المدينة إلى عصرنا هذا، على رغم أن الأمة الإسلامية هي التي احتضنتهم وآوتهم في كل فترة نزل بهم حيف أو اضطهاد. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية نفت عن مسيئي الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة الإيمان وطردتهم من رحاب الرحمة، وأن معنى ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لن يؤمنوا مطلقاً، لأن العرب يكونون بالقليل عن المعدوم، ويضعون لفظ "قليلاً" في معنى النفي كقولهم: فلان قليلاً ما يستحيي أو قليل الحياء، أي لا حياء له، ومنه قولهم: قلَّ رجل يقول ذلك، أي لا رجل يقول ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ﴾ النمل 62 أي: لا تذكرون ولا تتعظون.

وبعد أن أنهى الوحي الكريم خطابه للذين أخذوا بعضاً من الكتاب وأضاعوا بعضه، وهم الأكثرية في اليهود، اتجه إلى الذين ما زالوا يحتفظون بالكتاب كله علماً ومدارسة، لما عرفوه فيه من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يعلمونه من شرائط الإيمان وعواقب الشرك والكفران وما بلغهم عما أخذ به العصاة من سلفهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يخاطب الحق سبحانه علماء بني إسرائيل بما يعرفونه من كتابهم التوراة، ليدعوهم إلى الإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، قرآناً يصدق ما بين أيديهم من

أصول الدين التي جاء بها ركب الأنبياء عليهم السلام، وتلك حجة بالغة على أن القرآن والتوراة من مشكاة واحدة، هي مشكاة الوحي الإلهي، وأن اختلاف الكتابين لم يكن إلا في التشريعات العملية التي تتغير تبعاً لحكمة الله في تغيير الأفضية وحاجات الناس وبيان العبادات والأحكام المناسبة، وإلا فإن أصل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره موجود في صحف إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، والقرآن بذلك مصدق لما مع بني إسرائيل في كتابهم قبل تحريفه، وهو قوله تعالى لهم: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، وكان العقل والمنطق يقتضيان أن يقارنوا بين الكتابين فيعرفوا أن مُنَزَّلَهُمَا واحد هو الله تعالى، وأن يكونوا أول المؤمنين، إلا أن التعصب والحسد أعمى أبصارهم وأضل أعمالهم فكانوا أول كافر به، وفي ذلك يخاطبهم عز وجل بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ البقرة 40/41.

ولأن الخطاب موجه لعلماء بني إسرائيل فقد هددهم القرآن الكريم بما يعلمون أن له سابقة وقعت في أسلافهم فقال تعالى معقبا على دعوتهم للإيمان: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمَسَ وُجُوهًا فَتَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾، وطمس الوجوه هو محو ملامحها وصفاتها البشرية وتحويلها من صورة حسنة إلى أخرى أقيح، كما فعل تعالى بمن اعتدى منهم في السبت، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ البقرة 65، وقال: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ المائدة 60. أما الرد على الأدبار فهو صدهم عن سبيل الهدى إذا ما حقت عليهم لعنة الله تعالى.

وقد آتت هذه الدعوة ثمارها لقوة حجتها على صدور القرآن والتوراة من مشكاة الوحي وعلى تصديق القرآن لما نزل على موسى عليه السلام، ولصرامة التهديد بما يعلمونه من مسخ وطمس وقع حقا في بعض أسلافهم، فأقبل أكبر علماء بني إسرائيل على الإسلام، يقدمهم عبد الله بن سلام، أكبر أحبارهم وأعلمهم وأعلاهم نسباً، إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد شهادة الحق، ثم قال: (يا رسول الله، إن اليهود يعلمون منزلي فيهم ومكانتي؛ ولكنهم قوم بُهت،

ادْعُهُمْ وَسَلِّمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ تَخْبِرَهُمْ بِإِسْلَامِي، فدعا اليهود، قال: ما تقولون في عبد الله بن سلام ؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا. قال: ألا تسلمون؟ قالوا: لا، قال: وإذا كان عبد الله بن سلام قد أسلم؟ قالوا: حاشا لله، ولا يمكن أن يسلم، قال: اخرج عليهم يا عبد الله، فخرج عبد الله عليهم وقال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أنه النبي الحق الذي كنا ننتظر مجيئه، أسلموا تسلموا، قالوا: أنت أكذبنا وابن أكذبنا، قال: يا رسول الله، هذا الذي كنت خائفًا منه). قال ابن إسحاق: (ولما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام ورسخوا فيه قالت أحبار يهود أهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا ولو كانوا من أختيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ آل عمران 113.

وفي عهد عمر رضي الله عنه أسلم علم من علماء بني إسرائيل هو كعب الأحبار، في قصة طويلة نجتزئ منها قوله: ( كنت ذات ليلة على سطحي وإذا أنا برجل من المسلمين يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. فلما سمعت هذه الآية خفت والله أن لا أصبح حتى يُحوَّلَ وجهي، فما كان شيء أحب إلي من الصباح أن يرد، فلما أصبحت غدوت من منزلي وسألت عن عمر فقبل لي إنه بيت المقدس فقصدت إليه وإذا به قد صلى بأصحابه صلاة الفجر عند الصخرة، فأقبلت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام وقال لي: من أنت؟ فقلت له: أنا كعب الأحبار وإنني جئت أريد الإسلام والدخول فيه فإني وجدت صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته في الكتب المنزلة.

ثم في تحذير واضح لهم من أن يغتروا بانتمائهم إلى الكتاب والأنبياء، أشار الحق سبحانه إلى أنهم قد هدموا أساس دينهم بالشرك الذي لا يغفر فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، والمراد بالشرك في هذه الآية مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود، لأنه لا يشمل عبادة غير الله معه أو من دونه فحسب، ولكنه

يتحقق أيضا باعتماد غير الأحكام الشرعية المنزلة في الكتاب، كما بين ذلك الحق سبحانه بقوله عن المتاجرين بانتحال الأحكام الدينية المزيفة: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ البقرة 79، وقوله عن تشريعات الأحرار والرهبان من غير الكتاب مطلقا: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة 31. ولكن لم يجعل القرآن الشرك عنوانا لهم فذلك لأنه ليس من أصل دينهم، وليميزهم عن المشركين بعبادة الأوثان. وهذه الآية الكريمة هي الفاصلة في بيان آيات الوعد والوعيد عند أهل السنة والجماعة، وذلك أن الناس أربعة أصناف: كافر مات على كفره فهو مخلد في النار، ومؤمن محسن فهو في الجنة بإجماع، وتائب مات على توبته فهو لاحق بالمؤمن المحسن، ومذنب مات قبل توبته فهو في المشيئة.

ثم عقب الحق سبحانه ببيان حقيقة الشرك وأنه افتراء وكذب على الله تعالى فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: ومن يشرك بالله في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه وصفاته فقد ﴿افْتَرَىٰ﴾ اختلق زورا وإفكا وارتكب إثما عظيما بجحوده وحدانية الله، واتخاذ شركاء له في الاعتقاد أو التشريع أو الأمر والنهي. لذلك كان أخطر ما يحتمل ارتكابه في الدين هو الشرك خفيا أو ظاهرا، وكان كل ذنب سواه قابلا للمغفرة ما توفرت شروطها، وفي الحديث الذي أخرجه السيوطي وصححه: (ذنب لا يغفر، وذنب لا يترك، وذنب يغفر، فأما الذي لا يغفر فالشرك بالله، وأما الذي يغفر فذنب العبد بينه وبين الله عز وجل، وأما الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا). وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئا، وديوان لا يترك الله منه شيئا، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ المائدة 72، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئا، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضا، القصاص لا محالة، لذلك يرى الفقهاء أن هذه الآية من أرحم الآيات في كتاب الله، وفي صحيح البخاري عن أبي ذر قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب



وقد خسر من أغواها ولوثها بفساد القول والعمل، كما قد تعني تركية النفس مدحها بالحق أو بالباطل وكلاهما مذموم كما في قوله تعالى ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ النجم 32، أما لفظ الزكاة فمعناها لغة الطهارة والنماء والبركة والمدح وكلها قد استعملت في القرآن والحديث.

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾؟ أي ألم تعجب يا محمد لرؤيتك أهل الكتاب وهم يتمادحون بالباطل استكبارا واغترارا وكذبا على الله؟، ألم يعلموا أن التزكية شهادة؟ وشهادة المرء لنفسه لا تجوز عرفا ولا قضاء ولا منطقا، ومادامت التزكية متعلقة بمجال الغيب وأحكام الآخرة حسابا وجزاء وتفاضلا بين الأمم أو نجاة من العذاب فهي خاصة به تعالى يقررها لمن يشاء من عباده ﴿بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾، حسب حكمته وعلمه بدواخل القلوب وخفي النوايا وصواب الأعمال، من غير ظلم أو حيف أو نقص للأجر أو غمط للحقوق ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: لا يظلمون أدنى ظلم أو أصغره، ولا يُنقص من أجرهم أو يُزاد في أوزارهم مقدار فتيل، والفتيل هو الخيط الدقيق في شق النواة، ضرب الله به المثل لدقة عدله يوم القيامة، كما في قوله أيضا: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الإسراء 71.

إن تركيتهم لأنفسهم تضمنت إثمين عظيمين أحدهما ادعاؤهم الاتصاف بما هم متلبسون بنقيضه، وثانيهما ادعاؤهم قبول الله لهم وارتضاه أعمالهم ونيلمهم المرتبة العالية عنده، وكلا الإثمين عظيمان عند الله اعتقادا وعملا، لذلك نبه عز وجل إلى ذلك داعيا للتعجب منه بقوله تعالى:

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ انظر يا محمد وتعجب من هؤلاء المنحرفين المحرفين الذين يختلقون الكذب على الله ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، وكفى بهذا الافتراء وحده إثما ظاهرا بينا ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ مُرْكَسًا لَهُمْ في أشد العقاب، قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الزمر 60

لعل ما يشير الانتباه في هذه الآيات المتعلقة بما ارتكبه أهل الكتاب هو توجيهها الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ ثم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ثم ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطاب لأُمَّته أيضا، فهل ثمة ما يشير إلى احتمال سقوط المسلمين فيما سقطت فيه أُمم الرسالة قبلهم من تغيير وتبديل لكلام الله، ومن أخذ لبعضه وترك لبعضه، ومن غرور وتزكية للنفس وادعاء الانتساب لعقيدة التوحيد دون العمل بشرائطها؟.

أما تغيير كتاب الله تعالى فالقوم أعجز عن القيام به لأن الله تعالى تكفل بحفظه وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر 9، وإن ظهر في المسلمين حاليا من يحاول الافتراء على الله لتسميع أحكام الدين بدعوى تغير الأحكام بتغير الزمان وبطلانها بتطور الإنسان، أو بتأويل فج باطل حيننا، وانتحال مقاصد تزعم الاطلاع على مقاصده عز وجل حيننا آخر؛ وأما إثارة الضلالة والعمل على الإضلال فقد عرف من ذلك مجتمع المسلمين حدا أفتى فيه بعض علماء السلاطين بتحريم الواجب وإباحة المحرم، مما لا يناسب الإيجازَ إيرادَ نماذج منه في هذا المجال. وأما الغرور وتزكية النفس فقد أتى فيهما المسلمون في هذا العصر بالعجب العجائب، وصنفوا أنفسهم فئات ناجية وأخرى مخلدة في النار، وقوما نزل القرآن بلغتهم فهم أفضل من غيرهم ولو هجروه ولم يعملوا به، وآخرين من غيرهم أدنى درجة مهما تمسكوا به وأخلصوا العمل به. كما ارتكب كبارهم الفواحش والكبائر جهارا فتقرب إليهم العامة بارتكاب نفس الفواحش نيلا لرضاهم وطمعا في أعطياتهم مالا ومنصبا وجاها، ولئن قتل اليهود الأنبياء والمرسلين فقد قتل حكام المسلمين وأعاونهم دعاة القسط والعدل والدين وشردوهم وصادروا حرياتهم وأموالهم وطاردوهم في الآفاق.

ولئن كان الله تعالى قد مكن لبني إسرائيل ما لم يمكن لأحد من العالمين وجعلهم من بعد ضعفهم أئمة وارثين: ﴿وَوَرِثُوا أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ القصص 5، وسخر لهم في عهد نبيهم سليمان عليه السلام من وسائل القوة ما لم يسخر لغيرهم، وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ص 39/36،

وخاطبهم الحق سبحانه بعد أن بدت عليهم مظاهر التمرد وكفران النعمة بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة 47، فلما عتوا وتجبروا وأشركوا كان مآلهم الضعف من بعد القوة والذلة من بعد العزة، والخفض من بعد الرفع، وقال تعالى فيهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ المائدة 80/78.

لن كان هذا رسماً بيانياً لخط القوة والضعف في مسيرة بني إسرائيل فإن ذلك نفسه هو خط قوة المسلمين وضعفهم على مدار التاريخ، مما يشهد به سلطانهم المكين في الماضي، وواقع تمردهم على تعاليم دينهم حالياً، مع ذلتهم تحت سنابك خيل أعدائهم، واستمرارهم الاستضعاف بين يدي كل متسلط، والولاء لكل ظالم متجبر، وذلك ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم إذ قال: ( لتبتعن سنن من قبلكم باعاً فباعاً، وذراعاً فذراعاً، وشبراً فشبراً، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه معهم)، قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟، قال: (فمن إذا؟)، وقال: (إن من قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة فنهاه الناهي تعزيراً فإذا كان من الغد جالساً وواكله وشاربه كأن لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على أيدي المسيء ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم)، وذلك ما يجعل سنة الله في استبدال قوم بقوم قريبة من ديار المسلمين بما صنعوا ويصنعون، قال الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ محمد 38، وقال:

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ الأنعام 89.

## انهيار ثواب الأمة مقدمة للزوال والاستبدال

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (57) ﴾

لكل عقيدة دينية أو قومية أو وطنية ثوابتها التي تحفظها ما تشبث بها أهلها، على اختلاف آرائهم ومشاربهم ومصالحهم وما ينالهم من فتن ومحن ، ذلك ما جعل الإمام عليا رضي الله عنه حفاظا منه على ثوابت الدين يرضى ولاية أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ويطيعهم ويعينهم على رغم تحريض أبي سفيان وحزبه، إلا أن غلبة الهوى والأحقاد قد تعصف بهذه الثوابت فتنهار تحت وطأة الأنانية وغلبة المطامع وجشع النفوس وحب الجاه والسلطة، أو ردود الفعل العشوائية الناتجة عن مشاعر الإحباط والتذمر والانظام، فتستعين طائفة من الأمة على أختها بالأجنبي، وتستقدمه لاستباحة بني قومها أو وطنها أو دينها دماء وأموالا وأعراضا، كما هو واقع كثير من المسلمين في هذا العصر وقد ضعفت العقيدة في القلوب وعصفت عاصفة الفتن بالأفئدة وعميت البصائر عن الثوابت فلم يبق أدنى حرج ديني أو أخلاقي في استقدام الأجنبي يوطئ لبعضهم سبل الاستيلاء على السلطة بتطويع أهلهم وإخضاع أوطانهم، ويحضرني عند ذكر حالهم هذا موقف شهيم لرجل مسلم غابت قوته وحضرته ثوابت دينه بفضل الهزيمة على الاستعانة بالعدو على خصمه المسلم، ذلك الرجل هو مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية إذ أوقع به العباسيون وفر عنه جنده فاستشار أحد أعوانه هو إسماعيل بن عبد الله القسري في أمر اللجوء إلى أرض الروم والاستعانة بهم على العباسيين، قائلا: " قد ترى ما حل من الأمر وأنت الموثوق

به، ولا مخبأ بعد يؤس، ما الرأي؟ فقال له إسماعيل: يا أمير المؤمنين على ما أجمعت؟ قال: على أن أرتحل بموالي وعيالي وأموالي، ومن تبعتني من الناس حتى أقطع الدرب، ثم أميل إلى مدينة من مدائن الروم، فأنزلها، وأكتب صاحب الروم، وأستوثق منه، فما يزال يأتيني الخائف والهارب حتى يلتف أمري، فقال إسماعيل: "أعيدك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي، أن تحكم فيك أهل الشرك، وفي بناتك وحرملك، وهم الروم لا وفاء لهم، ولا تدري ما تأتي به الأيام، فإن أنت حدث عليك حادث بالروم، ولا يحدث إلا خير، ضاع أهلك من بعدك"، فما لبث مروان أن أبصر الحق وتذكر ثوابت دينه وفضل الفرار إلى أرض المسلمين في مصر حيث قتله العباسيون فيها.

كما تحضرني بالمناسبة أحداث سقوط بغداد على يد التتار قديما وسقوطها مع أقطار أخرى مسلمة على يد الغرب حديثا، وقد مهد لذلك مسلمون انهارت لديهم ثوابت الدين والوطن والقوم والقيم الإنسانية والقوانين الوضعية التي تُعدّ بها فعالهم خيانة عظيمة إن لم تكن ردة وخلعا للريقة.

إن انهيار الثوابت الدينية والقومية والوطنية لدى أي أمة مؤثر واضح على اندحارها الوشيك، واندثار أمرها بين الأمم، بذلك جرت سنة التدافع في الأرض، وليست أمم الرسالة على تتابع النبوات وتوالي نزول الكتب بشادة عن ذلك، وقد نسخت ديانة موسى بعد انهيار ثوابتها في قلوب بني إسرائيل، ثم نسخت معها ديانة النصارى لنفس السبب. يتضح هذا الانهيار الحاد لأهم ثابت ديني لدى اليهود في توراتهم وهو التوحيد، عندما خرج حُيّي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديان إلى مكة في سبعين راكباً من يهود المدينة ليحالفوا قريشاً على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فقالت قريش لهم: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم فسجدوا للأصنام، وقال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقاً؟ نحن أم محمد؟ فقال: ماذا يقول محمد؟ قال: يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك، قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت نسقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني، وذكروا أفعالهم، فقال: أنتم أهدى سبيلاً. فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم تعجيباً له من

انهيار الإيمان في قلوب بني إسرائيل بالسجود للأصنام وتفضيل الشرك على التوحيد الذي هو عماد ديانتهم الأصلية في التوراة، في الآية 51 من سورة النساء قوله عز وجل:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ ومضمون هذه الآية تعجب من تعارض ما يفعله يهود المدينة مع مقتضيات التوحيد في توراتهم، إذ آمنوا بالجبت والطاغوت بدلا من أن يتمسكوا بالإيمان بالله وحده، واستنصروا بالمشركين بدلا من الاستعانة بالله وحده، واستنصحووا سدنة الأوثان نابذين نصائح الأنبياء والمرسلين، وفي مقدمتها نصيحة موسى عليه وعليهم السلام: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الأعراف 128. والجبت لغة هو الصنم، أصله "الجبس" وهو الذي لا خير عنده، أبدلت سینه تاء، ويطلق على كل ما عبد من دون الله، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان بما يأتي به السحرة والخرافيون عن الغيب جبتا، لكون علم الغيب لله تعالى وحده، وقال فيما أخرجه أبو داود في سننه: (الطَّرْقُ وَالطَّيْرَةُ وَالْعِيَاةُ مِنَ الْجِبْتِ) [1]. أما الطاغوت فهو الشيطان، ويطلق على كل ما يُطغى الإنسان من جن وإنس ومال وجاه وسلطة.

والخطاب في هذه الآية موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن خلاله للمسلمين عامة، وتقديره: "ألم يثر عجبك يا محمد رؤيتك يهود المدينة الذين أوتوا حظا من العلم بالتوراة يزكون

---

<sup>1</sup> - الطرق: نوع من الكهانة كان عند العرب يسمى علم الخط وعلم الرمل، ما زال في المغرب من يستخدمه من المتكهنين، ويزعمون أنهم يستخرجون به ما في الضمير ويخبرون به عما في الغيب، وذلك أنهم يخطون خطوطا أو نقاطا كثيرة ثم يتعاملون معها بأوضاع واصطلاحات تقتضي نتائج معروفة لديهم.

والطَّيْرَةُ على وزن عِنْبَةٍ، وهي ما يُتَشَاءُ به من الفأل الرديء. وفي الحديث: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يجب الفأل الحسن ويكره الطيرة)، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ النمل 47

والعيافة من الكهانة أيضا، وهي زجر الطير، كان الرجل يرمي الطائر بحصاة ويصيح، فإن طار واتجه ميمنة تفاعل، وإن اتجه ميسرة تشاءم ولم يقبل على ما عزم عليه.

عبادة الجبت والطاغوت ويؤمنون بها ويقرون عليها ويحكمون بأفضلية عبادتها على عبادة الله تعالى؟، أليس موقفهم هذا مثيرا لدهشة أهل العلم بالدين الحق وجوهره؟".

لقد عَدَّت هذه الآية الكريمة سجود يهود المدينة للأصنام إيمانا بها، لأن الإيمان اعتقادي وقولي وعملي، كما أن الكفر اعتقادي وقولي وعملي، ولا يجتمع إيمان وكفر في قلب امرئ أبداً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ النحل 36 وقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ البقرة 297، وقد سقط يهود المدينة في الكفر العملي وهو سجودهم للأصنام، وسقطوا في الكفر القولي بقولهم لكفار قريش: ﴿هُؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي: دين هؤلاء عبدة الأصنام أكثر هداية من دين محمد صلى الله عليه وسلم وأقوم عقيدة وأرشد طريقة، وسمى الحق سبحانه قولهم هذا إيمانا عمليا وقوليا بالجبت والطاغوت، أي كفرا بالله تعالى بمفهوم المخالفة.

ذلك لأن الإيمان العملي هو كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كالصلاة والزكاة وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود وشكر النعم والرضاء بالقضاء والقدر، وهو العبادة في الحقيقة كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي) الذاريات 56، وقال صلى الله عليه وسلم: (الدعاء هو العبادة)، كما أن الكفر العملي يقتضي تقديم الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة لغير الله أصناما مادية أو معنوية أو مصالح وأهواء؛ ولئن كان العلماء قد أفاضوا الحديث عن الإيمان الاعتقادي (معرفة وحدانية الله تعالى) لكونه المدخل الأول للإسلام، فقد أغفل كثير منهم الكلام عن الإيمان العملي، ففهم العامة أن الاعتقاد القلبي وحده كاف في النجاة بين يدي الله عز وجل، وإن لم يوحدا توحيدا عمليا، وفاتهم أن التوحيد الكامل اعتقاد وقول وعمل وأن يهود المدينة كانوا يؤمنون بالله تعالى ولم ينقذهم هذا الاعتقاد من العذاب لأنهم أشركوا في القول والعمل، وما حملهم على هذا الانحراف العقدي إلا ما عدوه مصلحة سياسية، وهو عين ما تفعله بعض الأحزاب السياسية المعاصرة التي تجترئ على ثوابت الدين بدافع المصلحة والضرورة والمقاصد التي يتوهمونها. ثم عقب الحق تعالى على فعل يهود المدينة بقوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ واللعن هو المقت والطرد من رحمة الله، أي أولئك الذين آمنوا بالجبت والطاغوت وفضلوا عبادة الأصنام على عبادة الله قد غضب الله عليهم ومقتهم وطردهم من رحاب رحمته ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهَ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ومن يناله غضب الله عز وجل فلن يجد له في الدنيا والآخرة من ينصره، سواء في ذلك من استنصروا بالجبت والطاغوت قديما، ومن يستنصرون حديثا بأعداء الأمة لما ظنوه ضرور سياسية تبيح التخلي عن ثوابت الدين عقيدة أو شريعة أو منهج حياة، والآية بذلك إخبار من الله تعالى بعاقبة أمرهم في أي حرب يوقدونها، أو معركة يخوضونها، قال عز وجل: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ المائدة 64، وقال: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَإِنْ يُفَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ آل عمران 111.

لاشك أنهم كانوا يعرفون الحق الذي هو عبادة الواحد سبحانه، ولكنها الشطارة السياسة الناتجة عن خلل في تركيبهم التربوية والنفسية - كما هو شأن بعض فقهاء الضرورة والمقاصد على أعتاب طواغيت كل عصر - أبحاث لهم السجود للأصنام تزلفا ومداهنة لمشركي قريش من أجل استدراجهم إلى حلف الأحزاب ضد عدوهم المشترك وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. والنفوس المختلفة لا تتنازل عن ثوابتها إلا إذا بلغت بها الأنانية واللؤم والجشع درجة مرضية لا أمل في شفائها، وهي الحالة النفسية والسلوكية والعقدية التي يقدمها لنا الوحي الكريم ممثلة في يهود المدينة، فبعد أن وصفهم بالضلال والإضلال ثم بتفضيل الشرك على الإيمان، وصفهم في آيتين تاليتين بشر الخصال الحاضرة لكل المخازي والشور: البخل والحسد، وهما خصلتان تشتركان في أن صاحبهما يريد منع الخير عن الناس، إلا أن البخل يمنع الناس ما عنده، والحاسد يريد أن يمنع الناس ما عند الله، قال تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ وحرف "أم" في بداية الآية للإضراب عما سبق من الكلام والانتقال منه - وهو ذمهم على الإيمان بالجبت والطاغوت وسجودهم للأصنام وتفضيلهم إياها على عقيدة التوحيد - إلى توبيخهم على البخل والشح والأثرة والحسد وادعاء ما ليس لهم فيه نصيب، والاستفهام في الآية على معنى الإنكار، ينكر عنهم وينفي ما يزعمونه ويتنظرونه من ملك سيصير إليهم، ويذمهم على البخل المفرط الذي لا يناسب أخلاق الملوك ولا يليق بمن يدعي الملك أو ينتظره، والمعنى: بل ليس لهم نصيب من الملك الذي

يدعونه، لأنهم مطبوعون على الأنانية وحب الذات والتعلق بالمادة، والغرور الكاذب، والاستعلاء الأجوفاً، ولو كان لهم نصيب من الملك ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ولفظ "إذن" [2] حرف جواب وجزاء للاستفهام الاستنكاري السابق وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ...﴾، والنقير من فعل "نقر الشيء ينقره نقراً" أي ضربه بالمنقار الذي هو حديدة كالفأس ينقر بها، ومنه منقار الطائر ينقر به الحب أي يلتقطه به، والنقير في هذه الآية هو النقرة في النواة يضرب بها المثل في القلة، وفي حديث عبد الرحمن بن سبل قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نَقْرَةِ الْغُرَابِ وافتراش السبع وأن يُوطَّن الرجل المكان في المسجد كما يوطَّن البعير) [3].

ومجمل معنى الآية الكريمة: إنهم لشدة بخلهم لا يعطون غيرهم أقل القليل وأتفهه، ولو ملكوا من الدنيا أكثرها، لقد حُرِّموا الإذعان للحق كما حرموا الملك والتمكين ولو أوتوه ما نفعوا الناس بشيء منه مهما كان ضئيلاً وحقيقاً، وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ...﴾ قال: "فليس لهم نصيب، ولو كان لهم نصيب لم يؤتوا الناس نقيراً"، والآية بذلك ذم لهم بلازم الضلال والجهل المؤدبين إلى الشرك والبخل،

2 - "إذن" تكتب عادة بالنون لأنها الأصل فيه، وإن أجاز الفراء أن تكتب ألفاً لصحة الوقوف عليها.

3 - نَقْرَةُ الْغُرَابِ: بفتح النون، كناية عن تخفيف السجود بحيث لا يمكث المصلي فيه إلا قدر وضع الغراب منقاره فيما يريد أكله.

افتراش السبع: مشابهة السبع في افتراشه عند السجود، وذلك بأن يبسط المصلي ذراعيه في الأرض كما يبسط السبع أو الكلب يديه إذا ألقى، وقد نُهي عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن حديث البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سجدت فضع يديك وارفع مرفقيك)، وعن آدم بن علي قال: صليت إلى جنب ابن عمر، فافتراشت ذراعي، فقال لي: "لا تفتراش افتراش السبع، وادعم على راحتك، وأبدِ ضبعك، فإذا فعلت ذلك سجد كل عضو منك". والضَّبع بفتح فسكون: العضد، وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجافي في سجوده حتى يُرى بياضُ إبطيه.

يوطَّن مجلسه: أن يعتاد مجلساً واحداً في المسجد يحرص على اتخاذه موضعاً لصلاته.

وتهكم على انتظارهم عودة التمكين والملك إليهم، وليس لهم أخلاق من يرجو ذلك كرما  
وسماحة ورحمة، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ  
الْإِنْفَاقِ﴾ الإسراء 100.

وبعد التعجيب من حال يهود المدينة إذ انهارت لديهم ثوابت العقيدة، وأعلنوا الشرك  
استنصارا بالمشركين، وادعوا عودة الملك لهم وليس لهم من أخلاقه ما يناسبه، أخذ الوحي في  
استنكار موقفهم من الرسول صلى الله عليه وسلم، حسدا له، وغيظا مما من الله به عليه وعلى  
أمتة من الدين الحق، والرسالة الخاتمة والنصر والتمكين فقال تعالى:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وحرف "أم" للإضراب بمعنى: "بل  
يحسدون الناس" الذين هم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه، والحسد لغة هو تمنى  
زوال النعمة عن الغير والحرص على ذلك، وهو في جوهره اعتراض على مشيئته عز وجل، لأن  
الفضل بيد الله يعطيه لمن يشاء، كما أنه خصلة مقبولة تزرع البغضاء والتنافر في القلوب، ولا  
ينبغي أن تحل في قلب المؤمن، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: (لا يجتمع في جوف عبد  
الإيمان والحسد)، وقال: (دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة لا أقول  
تحلق الشعر ولكن تحلق الدين). أما أن يتمنى المرء أن يكون له مثل ما عند الناس فليس من  
الحسد في شيء، وهو الغبط الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم مجازا حسدا فقال: (لا  
حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو  
يقضي بها ويعلمها).

إن محمدا صلى الله عليه وسلم نالته نعمة الله التي أنعم بها على الأنبياء والرسل، وأدركته  
دعوة إبراهيم إذ دعا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ  
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة 129، وبشارة عيسى إذ قال: ﴿يَا بَنِي  
إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي  
اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الصف 6، فما الغرابة فيما آتاه الله تعالى من الكتاب والحكمة والملك العظيم؟،  
ولم الحسد وكل ذلك من عطاء الله تعالى ولا مانع لما أعطى؟ لذلك عقب تعالى بقوله: ﴿فَقَدْ

آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾ ومن كتب الله التي أوتوها صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى وقرآن محمد عليهم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه، ومن الحكمة التي أوتوها النبوة والسداد في القول والعمل وفقه أسرار التشريع وتنزيله في واقع الناس، قال صلى الله عليه وسلم: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)، ومن الملك الذي أوتوه خلافة داوود وسليمان عليهما السلام، والتمكين لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته ما تمسكوا بمنهج الإسلام وعملوا به وله، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿٥٥﴾ النور 55، وقال صلى الله عليه وسلم: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، و لا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل به الكفر).

ويهود المدينة المنكرون لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لم يخرجوا عن سنن أعداء الرسل قبله، فعلى مدار حركة النبوة من عهد إبراهيم كان في الناس من يؤمن ومن يكفر، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ الأنعام 35، وكان مآل من كفر الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولذلك عقب تعالى بقوله:

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي من اليهود من آمن بالقرآن مثل عبد الله بن سلام ومن معه، ومنهم من أعرض عنه وهم كثير، ﴿وَكَفَىٰ بِيَجْهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وكفى بسعير جهنم عذابا لمن سلك مسلك يهود المدينة كفرا وبخلا وحسدا للمؤمنين.

ويختتم الوحي عرضه لحالة انهيار ثوابت التوحيد لدى أمة بني إسرائيل وما ترتب على ذلك من أمراض سلوكية وعقد نفسية وحرمان من الهدى والسعادة، بذكر قاعدة الجزاء المطلقة، جزاء أولياء الله وجزاء أولياء الشيطان، في كل عصر وفي كل مصر، أتباع كل نبي وعصاته، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا﴾ الانشقاق 12/7، يسوق ذلك في صورتين حيتين ترتعش الفرائض لأولاهما، وتنشرح النفوس للثانية، بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ هذا جزاء من كفر بآيات الله في الكون المنظور فلم يجعلها معالم في طريق الإيمان، وآيات الله المتلوة في كتابه المسطور فلم يتخذها منهجا للحياة، إنه الجزاء العادل لمن توفرت له أسباب الهداية فلم يهتد ولم يتدبر، وأسباب السعادة فأعرض عنها واستكبر، ليس له عند ربه إلا حميم جهنم ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ الحج 22/20، كلما نضجت جلودهم في النار بدلت بأخرى حية تامة الإحساس بعذاب الحريق ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ قادرا لا يفوته مجرم كافر، حكيما عادلا في ما يقدره من جزاء.

وفي مقابل هذا الجزاء الوفاق للكفر والكافرين يسوق الرب الكريم جزاء عباد الله الصالحين، في نعيم الجنة وخلود السعادة فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ إنه الخلود في الجنة يتمتعون بأنهارها الجارية، وهوائها العليل وظلها الظليل، وحياتهم الدائمة المزدهرة وأزواجهم الطاهرة المطهرة. وإنه العدل الإلهي الذي يقدر الثواب والعقاب، ولا يخطئ الحق والصواب: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ الشورى 7، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الزمر 71، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ الزمر 73.

إنها النتيجة الحتمية لمسارين على المرء أن يختار أحدهما، مسار الخلد في الجحيم ومسار الخلد في النعيم، ولقد اختار بنو إسرائيل طريق العناد والمكابرة وسلكوا للانتصار فيها مسالك من الشيطنة تنازلوا فيها عن أخطر ثابت أتى به نبيهم موسى عليه السلام، وهو التوحيد ونبذ الجيت والطاغوت، فكان جزاؤهم العزل عن قيادة البشرية، والخلود في النار وابتعاث أمة أخرى أوفى عهدا وأثبت عقيدة وأقدر على الريادة والإمامة، هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، إلا أن هذه الأمة خاضعة كذلك لسنة الله في الجزاء والاستبدال، ولقد ذقت أجيالها الأولى من النصر

والتوفيق ما مكن الله لها به في الأرض، ونشر لواءها في الآفاق، إلا أن ما يصيها حاليا من ذلة وضعف وهزيمة ينبئ بشر مستطير على الأبواب، لا سيما وقد فرطوا في ثوابت دينهم، وتساهلوا دولا وأحزابا وكثيرا من ناسهم في أخص خصائص التوحيد وهو الاعتماد على الله وحده والاستنصار به وحده، والخوف منه وحده والرجاء فيه وحده، وتوسلوا فيما طلبوه من الدنيا على الأجنبي الغازي، أو الشيطنة السياسية المنفلتة عن ريقه الدين، ولا شك أن هذا السلوك منهم بعض ما ارتكبه بنو إسرائيل أو كله، ولا ريب أنه مقدمة الاستبدال الذي حذرنا منه الحق سبحانه بقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ محمد 38، لا سيما ونحن نرى أقواما غيرنا تقبل على الإسلام إقبال الإبل العطاش على الماء الزلال وتقدم لنا في الالتزام بأحكامه خير مثال. فهل نؤوب إلى الجادة فنقبض على الجمر ونستنصر بالله وحده، ونستمسك بالثوابت، توحيدا خالصا غير مشوب، ونبذا لكل طاغوت منا أو من غيرنا؟.

## النظام السياسي ومنهج تدبير الشأن العام في الإسلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59)﴾

إن ما تمتلكه الأمة الإسلامية بشعوبها وأعراقها من مقومات القوة المادية والغلبة والرفي، وما اختصها الله تعالى به من ثرواتٍ بشرية ومعدنية ومائية وزراعية ومواقعٍ استراتيجية وتراث عريق، مما يؤهلها لأن تتبوأ أشرف المراتب وأعلاها بين الأمم، إلا أنها مع كل ذلك كله تعيش مذلة العصر ومهانة التاريخ وعبرة الأمم، لافتقادها الوعي الناهض بمقتضيات دينها والعمل الجاد بمنهجها والأداء الصادق لما حُمَّلَتْهُ من أمانة الإسلام، فكانت حصيلتها من سعي الليل والنهار ما تتجرعه حاليًا ولا تكاد تسيغه ويأتيها الموت من كل مكان وما هي بميتة ولا حية.

ولئن كان الوحي الإلهي في الآيات السابقة من سورة النساء قد بين للأمة منهج الإسلام في الاحتماء من أي استضعاف مكتسب داخليًا بتصرفات بعض أهلها، أو خارجيًا بمكر من أعدائها، وحذر من التفريط في ثوابت الدين اعتقادًا وقولًا وعملاً، ومن الركون إلى المنافقين والمندسين والاستئمان إلى مكرهم والثقة بنصائحهم واتباع أهوائهم بدافع الرهبة أو الرغبة أو لضرورات متوهمة، فإنه عز وجل قد عقب على ذلك كله ببيان منهج للتدبير العام يُلْمُ متفرق هذه التوجيهات في نظام سياسي متكامل لأمة واحدة، ذات سعي رشيد واحد وهدف رضي واحد، وخطو سديد منتظم وعزم قوي منسجم، فقال عز وجل مبتدئًا بأمر عام يفصله ما بعده:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ أمر من الله تعالى صريح الوجوب، مؤكد بحرف "إن". ولفظ: ﴿تُؤَدُّوا﴾ من أصل الفعل "أَدَى يَأْدِي"، والهمزة والدال والياء كما قال ابن فارس أصل واحد، وهو إيصال شيء إلى شيء، أو وصوله إليه من تلقاء نفسه، ومنه "الأداة" وهي الآلة التي تستخدم في الحرف، يقال: آداهُ على كذا يُؤدِيهِ إِيْدَاءً،

إذا قواه عليه وأعانه، وأدّى دينه تأدية وأداء إذا قضاها، وأدّى صلاته إذا قام بها، وأدّى الشيء إذا أوصله، وأدّى الشهادة إذا بلغ ما علمه لمن هو أهله، وتأدى إليه الخبر أي بلغه، وأما قوله عز وجل: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ الدخان 18، فهو من قول موسى عليه السلام لآل فرعون ومعناه: سلّموا إليّ بني إسرائيل، ويطلق الأداء مجازاً على قول الحق والاعتراف به والوفاء بما في الذمة من مال أو وديعة أو علم.

ولفظ ﴿الْأَمَانَاتِ﴾ جمع أمانة، من أصل الفعل "أمن" ويفيد التصديق وسكون القلب وطمأنينته، ومنه الأمن ضد الخوف، والإيمان ضد الكفر والإيمان بمعنى التصديق ضد التكذيب، والأمانة ضد الخيانة، والأمانة أيضا هي الوديعة، اسم لما يؤتمن عليه الإنسان مالا أو حقوقا أو أسراراً وهو أمين عليها، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأنفال 27، وهي أمانة الإسلام عقيدة وشريعة، وفي الحديث: (المؤذن مؤتمن) أي أن المؤذن أمين الناس على صلاتهم وصيامهم.

وقوله تعالى: ﴿أَهْلِيهَا﴾ يعني أهل الأمانة وهم مستحقّوها، كما يقال: أهل الدار أي أصحابها. وقد ذكر الواحدي في أسباب النزول أنّ الآية نزلت يوم فتح مكة إذ سلّم عثمان بن طلحة مفتاح الكعبة للنبي صلى الله عليه وسلم وكانت سدانة الكعبة بيده، فسأله العباس بن عبد المطلب أن يجعل له سدانة الكعبة يضمها مع السقاية التي كانت بيده، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن طلحة وابن عمّه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، فدفع لهما مفتاح الكعبة وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، وقال لهما: (خذوها خالدة تالدة لا ينتزعها منكم إلا ظالم)، وعلى هذا فلفظ "الأمانة" في الآية مستعمل في معناه الحقيقي، لأنّ عثمان سلّم مفتاح الكعبة للنبي عليه الصلاة والسلام دون أن يسقط حقه فيه، ولفظ "الأداء" بذلك على الحقيقة متعلق بذاتٍ يمكن إيصالها بالفعل لمستحقّها، وعموم الأمر به إلزام بإيصال جميع الأمانات إلى مستحقّيها، وإيجاب للوفاء بكل ما في ذمة المرء من حقوق، قال صلى الله عليه وسلم: (لَتُؤَدَّنَ الحقوق إلى أهلها، حتى يقتصّ للشاة الجَمَاء من القرناء)، ولا شك أن ذروة سنام الأمانات هي الأمانة الكبرى التي واثق الله عز وجل بها فطرة الإنسان بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ

تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿الأعراف 172﴾، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب 72، وأول هذه الأمانات حق الله على الناس وهو التوحيد والعبادة، ثم حق النفس على صاحبها وهو تطهيرها وتركيتها وجلب المنافع المشروعة لها ودفع الأضرار عنها، وحق العباد وهو الإحسان إليهم وترك أذاهم، ونصحهم في دينهم وديناهم.

إلا أن ما ورد عقب هذه الآية من ذكر للحكم والتحاكم، وطاعة الله تعالى ورسوله، وطاعة لأولي الأمر في حالة الوفاق، والرد إلى الكتاب والسنة في حالة التنازع، قرينة قوية على ارتباطها بالشأن العام داخل الأمة الإسلامية، فصل قضاء ونظام تدبير وتسيير وتشريع. وكان المدخل إلى ذلك الأمر بأداء الأمانات في حال الامتثال والوفاء، والأمر بالعدل في حال التنازع والتنازع واختلال الأخلاق في المجتمع، بقوله تعالى عقب ذلك:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ والحكم لغة من الألفاظ التي يتحد لفظها ويتكرر معناها لغة واصطلاحاً، وهو مصدر قولك: حَكَمَ بينهم يَحْكُمُ أي قضى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الإسراء 23 أي حكم، ومنه قولك: "قد حَكَمَ" بضم الكاف، أي صار حكيماً، و"الحكيم" هو المتقن للأمور، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ مريم 12، أي علماً وفقهاً؛ وإذا ما استعرضنا أوجه الاستعمال القرآني للفظ "الحكم" ومشتقاته، نلاحظ أنه لم يستعمل قط بمعنى التحكم في الناس ومصادرة حريتهم في تسيير أمرهم الجامع، وإنما ورد بمعنى القضاء بينهم والفصل في أمورهم والبث في منازعاتهم كما في هذه الآية، وأن وقوعه دائماً يكون على القضية موضوع الحوار أو البحث أو الخلاف أو التنازع أو التصرف، لا على الشخص ذي العلاقة، من أجل الوصول إلى حل أو منهج أو قضاء بإلزام أو إطلاق. وهذا يبعد ما ذهب إليه الفقهاء والمتكلمون في فقه الأحكام السلطانية، من أنه حكم على الناس من قبل حاكم، رئيساً كان أو ملكاً أو أميراً.

والعدل : ضدّ الجور، وهو في اللغة التسوية والقضاء بالحق فيما يعرض للمرء من أمر نفسه أو أمر غيره، يقال: عدل كذا بكذا، أي سواه به ووازنه عدلاً، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿ الأنعام 1، معناه أن المشرك يسوي بربه تعالى غيره - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً -.

والعدل المأمور به في هذه الآية الكريمة هو عماد النظام القضائي في الإسلام، أي الحكم [4] بالكتاب والسنة في جميع ما يعرض للأمة من قضايا، لما قاله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ النساء 105، وهو كذلك عماد العلاقات السوية بين الناس في معاملاتهم اليومية، لأنه حق في ذمة كل شخص نحو غيره، كل امرئ مطالب بالعدل في جليل القضايا وتفاهها، وقد رأى الإمام علي رضي الله عنه غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن ليحكم بينهما، أيّ خطيئتهما أحسن من الآخر، فقال له: "يا بني انظر كيف تقضي، فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة".

ولا يخفى أن العدل هو قوام الأمر كله في الحياة الدنيا وصمام الأمن والتعايش السليم بين الناس جميعاً، مختلفين أو مؤتلفين، أحباباً أو أعداء، لا فرق بين مسلم وغير مسلم، أسود أو أبيض أو أحمر أو أصفر، ويعني في عموم معانيه المساواة في تعيين الحقوق والواجبات توثيقاً وقانوناً، وفي تنزيلها على واقع الناس عملاً وتنفيذاً، والمساواة في التمتع الإيجابي بالحرية، حرية الرأي وحرية الاختيار، وحرية الكسب والإنفاق والتنقل والاستقرار، وحرية طلب العلم والسعي لتوفير الحياة الكريمة وتأسيس الأسرة السوية، لذلك عقب الحق تعالى محرضاً على الامتثال لأمره بأداء الأمانات وإقامة العدل ومبيناً فائدة ذلك بقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ ولفظ "نِعْمًا" أصله: "نِعْمَ مَا"، سَكُنْتُ الميمُ الأولى، وأدغمت في الثانية، وحُرِّكَتِ العينُ لِإلتقاء الساكنين، وَخُصِّتْ بِالْكَسْرِ إِتِّبَاعاً لِلنُّونِ، والمعنى أن ما وجهكم الله تعالى إليه في هذه الآية هو نعم النصيحة التي تستقيم بها حركة الحياة، والموعظة التي تكفل الأمن في المجتمع، والتذكير الذي ينبه الغافلين، فاحرصوا عليه وأشيعوه بينكم، ولا تنسوا أنه

4 - الحكم في علم القضاء هو الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام. قال القرافي: "حقيقة الحكم إلزام أو إطلاق، فالإلزام كما إذا حكم القاضي بإلزام الصداق والنفقة، والإطلاق كحكمه بزوال الملك في الأرض التي زال عنها الإحياء".

تعالى يراقب أعمالكم ويسمع أقوالكم ويعلم مدى أدائكم للأمانات وإقامتكم للعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

ولئن كان الأمر بأداء الأمانات وإقامة العدل موجهًا لكافة أفراد الأمة، ومنبثقا من صميم إيمانها بربها عز وجل وما أتى به رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن الحاجة إلى بيان منهج رباني عام شامل ينسق الجهود في هذا الشأن أصبحت ضرورية، إذ لا جدوى من محاولة المحافظة على الأمانات أو إقامة العدل في ظل فوضى الأنظمة الوضعية المبنية على اجتهادات بشرية قصيرة النظر قاصرة العلم والفهم، متقلبة الأمزجة متضاربة المصالح والغايات، لذلك شرع الوحي في تأسيس أولى لبنات منهج الإسلام في تدبير الشأن العام للأمة مستندا إلى ما ألزمت به نفسها من إيمان وإسلام لا يكونان صادقين إن لم يثمرا طاعة لله ورسوله، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ إن هذا المنهج الرباني مبني أولا على طاعة الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾، إذ ما دامت الأمة قد آمنت به فقد أوجبت على نفسها طاعته ولذلك خاطبها الحق سبحانه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ومبني ثانيا على طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لكونه المبعوث إلى الأمة والمؤتمن على تبليغ المنهج قرآنا وسنة وقدوة، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ النساء 80، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ الحشر 7، وبذلك يلتحم نظام حياة الأمة بعقيدتها في نواة صلبة جزئياتها غير قابلة للتفتت أو الانفلات، نواة هي الميزان الأمثل المحايد الذي ترجع إليه العقول المتعارضة والآراء المتنافرة، والاجتهادات المختلفة عند محاولة تدبير الشأن العام، فلا تنجرف نحو إفراط أو تفريط، أو غلو وشطط، أو ميل لهوى فرد أو قبيلة أو فئة أو مصلحة خاصة.

إلا أن هذه النواة الصلبة للمنهج الإسلامي محتاجة في تنزيلها للواقع تنزيلا راشدا مبنيًا على شريعة الله كتابا وسنة، إلى أمة واعية تنتدب من بينها فئة تقيم ذلك، وتعطيها من أدوات البناء والتشييد طاعة منبثقة من طاعة الله ورسوله ولذلك عقب الحق سبحانه بوجود طاعتها بقوله:

﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي وطاعة أولي الأمر منكم، وقد جاء هذا الجزء من الآية معطوفا على ما قبله دون أمر بالطاعة، وهو ما يجعل طاعة أولي الأمر مقيدة بطاعة الله ورسوله، وهي بذلك

مجرد امتثال مزدوج، لأمر الله أولاً ثم لما تقرره الأمة في شأنها العام، وفي ذلك عصمة للأمة من الظلم والاستبداد ، ولأولي الأمر من الانحراف والفساد.

إلا أن عدم التثبيت في تحديد معنى لفظ "أولي" ولفظ "الأمر" لدى بعض الفقهاء قد ساهم في التعقيم على هذا المنهج الإسلامي الرشيد، لذا وجب أولاً رفع هذا اللبس بتوضيح طبيعة " الأمر" الوارد في الآية الكريمة ومعناه، لأن أمور الأمة كثيرة ومتنوعة، منها أمر بيان الأحكام الشرعية، ولا خلاف في أن العلماء هم ذووه، وأمر الحروب وتسيير الجيوش وأصحابه القادة العسكريون، وأمور العمارة والزراعة والصناعة وأبحاث العلوم التطبيقية ولكل منها ذووها والقائمون عليها، هذا أول أسباب الاختلاف في تحديد معنى قوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾، ذهب جابر بن عبد الله ومجاهد والإمام مالك إلى أنهم أهل القرآن والعلم، وميمون بن مهران ومقاتل والكلبي إلى أنهم أصحاب السرايا، وابن كيسان إلى أنهم أولو العقل والرأي الذين يدبرون أمر الناس... الخ.

والسبب الثاني لذلك هو التباس معنى لفظ "أولي" في بعض الأذهان، وقد عده بعضهم جمعا مفردة "ولي"، ثم حاولوا تكريس هذا المعنى بإيراد أحاديث نبوية لا علاقة لها بالموضوع، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: ( لا نكاح إلا بولي )، وقوله: ( أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل )، وقاسوا بذلك النظام السياسي للأمة المسلمة على زواج المرأة ومسؤولية وليها عنها، ثم خلص بعضهم من هذا القياس الفاسد إلى أن الشورى واجبة على الحاكم وحده إن قام بها وفقى وإن لم يقم بها أثم وحده، ولا حق للأمة في محاسبته أو عزله، لأن حسابه على الله يوم القيامة.

إن كلمة "أولي" في اللغة العربية ليست بمعنى أولياء ، ولكنها اسم جمع بمعنى: "ذوي" ، وواحده "ذو" على غير قياس ، فلا واحد لـ"أولي" من لفظها، وذلك مثل: الخيل مفردها حصان ، الإبل مفردها: جمل، والنساء مفردها: امرأة. وعلى ذلك فقوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ معناه: "ذوي الأمر منكم" أو "أصحاب الأمر منكم"، وهو نفس المعنى للفظ "أولي" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ

وَعَدًا مَفْعُولًا ﴿الإسراء 5﴾، وقوله: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ الفتح 16، وقوله: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ﴾ النمل 33 ، وقوله: ﴿وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ الأنفال 75. وإذا ما استحضرننا في الأذهان قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ الشورى 38 تبين لنا أن أولي الأمر وأصحابه وذويه هم المسلمون عامة، أي أن أمر المسلمين شورى بين المسلمين، وطاعة قراراتهم المنبثقة بالشورى بينهم واجبة، ولو كان المعنى هو إطاعة الحاكم وأن الأمر له، لقليل: "وأطيعوا الرسول وذا الأمر منكم"، لأنه لا يكون في الزمان الواحد والمكان الواحد عند الفقهاء إلا إمام واحد، أما وقد وردت الآية: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ بصيغة الجمع، أي ذوي الأمر وأصحابه، فلا يمكن حملها على الحاكم، لأن حمل الجمع على المفرد خلاف الظاهر.

ولعل مما يجعل معنى الآية ملتبسا على بعضهم أيضا، اعتبارهم أن حرف الجر: "من" في قوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ للتبويض، في حين أنها وردت هنا لبيان الجنس، وليس للتبويض، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفتح 29، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ النور 55، وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ الحج 30 ، وقوله تعالى: ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ الكهف 31 .

وبما أن علامة "من" البيانية أن يصح الإخبار بما بعدها عما قبلها، أي أن يصح وقوعها صفة لما قبلها، وأن يناسب وضع "الذي" موضعها، فإننا نقول: "الرجس هي الأوثان"، ونقول: "الأساور هي ذهب"، ونقول أيضا: "الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين هم أنتم"، ونقول أيضا: "أولو الأمر" هم ضمير الخطاب في "منكم"، أي: "أولو الأمر الذين هم أنتم".

ثم إن الأمر بالطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم وأولي الأمر، جاء مطلقا وعلى سبيل الجزم، وكل ما ورد الأمر بطاعته على سبيل الجزم والإطلاق لا بد أن يكون معصوماً والرسول صلى الله عليه وسلم معصوم، والحكام غير معصومين، بل إن آحاد المسلمين كلهم غير معصومين، والعصمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تجعل إلا لإجماع الأمة في قوله

صلى الله عليه وسلم : ( لا تجتمع أمتي على ضلالة) ؛ فجاز أن يحمل تعبير "أولي الأمر" على إجماع المسلمين في قضاياهم الدنيوية، أي ما تعتقد عليه كلمتهم بعد تشاورهم كما فعل عمر بن الخطاب في أرض سواد العراق، لا سيما والحديث المذكور في غاية الاستفاضة وكاد يبلغ مرتبة التواتر المعنوي، وقد عده الغزالي أقوى وأدل على المقصود في الموضوع، ويؤكد السرخسي في أصوله الكلام نفسه بقوله: "الآثار في هذا الباب كثيرة تبلغ حد التواتر لأن كل واحد منهم إذا روى حديثا في هذا الباب سمعه في جمع ولم ينكر عليه أحد من ذلك الجمع فذلك بمنزلة المتواتر".

كما أن نسبة الأمر العام للأمة بكاملها في آية الشورى صريح في بيان المقصود من "أولي الأمر"، لأن الخطاب في هذه الآية موجه لعامة المؤمنين وليس لخاصة الحكام، كما يتضح من سياق قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ الشورى 38/36، ولا شك أن من الصفات المشتركة في المجتمع المسلم اجتناب الفواحش والتغافر وإقامة الصلاة وإقامة الشورى والإنفاق في سبيل الله، وهي كلها تكاليف شرعية منوطة بالأمة الإسلامية كلها وليس بأفراد مخصوصين حكاما أو علماء أو رجال سياسة أو قادة جيوش.

إن أول خطوات تدبير الشأن العام أن تنشأ الجماعة المسلمة (الأمة) حول بذرة العقيدة وتتفاعل بها ومعها ومن أجلها، وتنظم شأنها العام بواسطة الشورى الجماعية قرارا وتنفيذا ومحاسبة ومراقبة، بمنأى عن التراتبية السلطوية الهرمية، بما يحقق التعاطي الإيجابي البناء، بين الأمة وبين قيادتها الخدمية التنفيذية، دون احتكار للخيرات، أو مصادرة للرأي والحريات، أو سقوط في شرك الفتن الطائفية أو المذهبية أو العرقية أو الطبقية أو الحزبية، لأن كافة المواطنين في دولة الشرعية سواسية أمام عقيدة سمحة وشرعية عادلة ونظام هو ملك لهم جميعا.

ذلك ما نصت عليه وعملت به أول وثيقة إنسانية نظمت حياة الناس في الأرض، وثيقة المدينة التي كتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول هجرته إلى يثرب، تنظيما لسكانتها من

المسلمين وغير المسلمين، لجماء لطغيان الطوائف والعصبيات على بعضها، وإقراراً لمبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، في سماحة وعدالة لم تعرفهما أحدث القوانين الوضعية المعاصرة.

إن هذه الوثيقة لم "تُشرَعَنَّ" من قريب أو بعيد لحكومة أو رئاسة أو مجالس أهل حل وعقد أو حكام يغتصبون السلطة أو يتوارثون العروش، بل أُرست - مرتكزة على ما ورد في الكتاب والسنة من أحكام وتوجيهات - قواعد المجتمع المتكامل المكون لجميع الأطياف مهاجرين وأنصاراً، ومن لحق بهم واعتنق دعوتهم، أو جاورهم أو ساكنهم من ذوي الديانات المخالفة يهوداً ومشركين، في ظل المواطنة الصالحة تكافلاً وتعاوناً وتناصرًا، تقريراً وتنفيذاً. من غير ظلم أو حيف أو تخاذل أو تعال واستكبار، مع المحافظة على نقطة الارتكاز العقدي بما يحفظ للأمة مبدأ ولائها وبرائها، ويعصمها من التحلل والذوبان، وعلى حرية الأمة في التسلط على أمرها العام الجامع وحققها في اختيار منقذي قراراتها واستبدالهم متى اقتضت مصلحتها ذلك.

أما المبادئ المميزة والخطوط العريضة التي رسمتها هذه الوثيقة<sup>[٥]</sup> فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1 - مبدأ المواطنة المشتركة في الدولة الإسلامية

2 - مبدأ التكافل الاجتماعي بين المواطنين

3 - مبدأ المحافظة على أمن الدولة والمجتمع

4 - مبدأ المساواة والتسيير الذاتي للمجتمع

5 - مبدأ الدفاع المشترك بين جميع المتساكنين

6 - مبدأ حرية الاختيار وتقرير المصير للمخالفين

7 - مبدأ سيادة الشريعة وحاكمية الكتاب والسنة

<sup>5</sup> - يرجع لنص الوثيقة النبوية في كتاب: البداية والنهاية للحافظ ابن كثير 3- 224

هذا ما حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامته في المدينة المنورة، وتركنا عليه يوم بلغ للأسماع والقلوب والمهج آخر ما نزل من القرآن ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ، وأقام آخر أعمدة تدبير الشأن العام للأمة في خطبته الغراء بجبل الرحمة يوم عرفات في حجة الوداع ( السنة العاشرة للهجرة )، مبشرا بكمال الدين وتمام النعمة، حريصا على وضوح قوله وسماع صوته، وتبليغ رسالته، باتخاذ ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي مسمعا لخطبته وكان صيتا، قائلا له بين الفينة والفينة: "اصرخ"، مشهدا سامعيه على نفسه وبلاغه، يقول لهم: ( هل بلغت؟ فيقولون: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: ليلغ الشاهد منكم الغائب)، محذرا المسلمين من إهدار هذه الفرصة والمناسبة قائلا: (أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني ما أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم...).

إن "أولي الأمر" كما ورد في الآية الكريمة، وفي وثيقة المدينة، وفي خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، هم المسلمون عامة، وإنما ينتدبون لتنفيذ قراراتهم المتعلقة بتدبير شأنهم العام من يرضون قدرته وكفايته ونزاهته وتقواه، محتفظين بحقهم في تقنين شروط الاختيار والاستبدال والإعفاء والمحاسبة في إطار الشورى الجماعية واجبة التنفيذ، لذلك فرض الله تعالى طاعة من تكلفهم الأمة بخدمتها وتنفيذ قراراتها، لأن طاعتهم طاعة للأمة التي هي صاحبة الأمر، فإن طرأ خلل في الاختيار أو التسيير أو التنفيذ وأنشأ تنازعا واختلافا كانت منهجية الحل وإعادة الوفاق ورأب الصدع هي قوله تعالى عقب ذلك:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. وقوله تعالى: ﴿تَنَازَعْتُمْ﴾ من أصل الفعل "نزع" ويدل على قلع شيء، ونزع الشيء من مكانه نزعا إذا حوِّله من موضعه، وقد نازعني منازعة ونزاعا إذا جاذبني في الخلاف، ومنه التنازع وهو مجاذبة الحجة والآراء بشكل يؤدي إلى الخصومة.

أما الرد إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو إنهاء أمور الخلاف إلى أحكام القرآن الكريم، كما قال تعالى أيضا في الآية 10 من سورة الشورى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ

فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ، وإلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالا وأفعالا وتقريرات بيّن وجوبها بقوله عليه السلام: (لا أَلْفِينِ أَحَدَكُمْ مَتَكْتَأً عَلَى أُرَيْكْتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتّبعناه) ، وقوله: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله)

لقد حرم الله تعالى التنازع بين المسلمين وناط به الفشل والاندثار بقوله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الأنفال 46، وجعل تمام المسالمة بينهم وحدة العقيدة وأخوة الإيمان واستشعار المسؤولية بين يدي الله تعالى فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ آل عمران 103، إلا أن الأمة الإسلامية في هذا العصر طال عليها الأمد - إلا قليلا ممن رحم الله - فارتكست في الاختلاف الشديد والتنازع المزمن، وفرقت دينها فألّست شيئا وأحزابا ذاق بعضها بأس بعض، وليس من سبيل إلى راب الصدع والعودة إلى صراط الله القويم إلا برد جميع أمرها إلى الكتاب والسنة ومنهج ربها في هذه الحياة.

ولعل من المناسب في هذه العجالة عرض بعض أسباب هذا التنازع ونتائجه فرقة وضعفا وانذلالا بين الأمم، والتذكير بمنهج رده إلى الكتاب والسنة، وفي مقدمة ذلك:

1 - العرقية والطائفية والحزبية والمصالح الشخصية السائبة، وهي كلها آفات تضرب وحدة المسلمين، وتتحول إلى معبود أو شبه معبود، جبنا وطاغوتا يتنكر المرء به لأبيه وأمه وصاحبه، ويتخلى من أجله عن ثوابت العقيدة تأويلا للأحكام ولها للنصوص وإيثارا لما تهوى الأنفس.

ولا شك أن القلوب المؤمنة، والأفئدة المتشربة لدين التوحيد، والصادقة في تحمل الأمانة، تتطهر من هذه الآفات، وتسلس قيادها لله عقيدة صافية وشريعة على النهج السليم. لأن الإخلاص الحق لله تعالى هو تصفية جميع النوايا والأعمال من ملاحظة المصالح الفئوية عرقية كانت أو فئوية أو حزبية، فإن شابها شيء من ذلك كان الشرك أكبر أو أصغر، ظاهرا أو خفيا. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكا

فهو لشريكى، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خالص له، ولا تقولوا هذا لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شيء، ولا تقولوا هذا لله ولجوهكم فإنها لجوهكم وليس لله تعالى منها شيء). فكيف بمن يشرك في نيته وسعيه انتماءه الحزبي أو الفئوي أو العرقي قبل انتمائه العقدي أو معه، برّا كان ذلك أو صدقة أو زكاة أو زواجا أو مصاهرة أو صلاتٍ وعلاقاتٍ سياسيةً أو اجتماعية أو تجارية أو اقتصادية ؟

إن كل تجمع أو تكتل يراعي فيه المرء مع الله انتماءه العرقي أو القبلي أو الحزبي أو الطائفي هو للعرق أو للقبيلة أو للحزب أو للطائفة، وليس لله منه شيء، والله تعالى يقول فيما يرويه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم: (من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله، وأنا عنه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك).

2- من أسباب الفرقة والاختلاف بين المسلمين ولأئ بعض المنافقين فيهم لأعداء الأمة وعملهم على تخريبها من داخلها، وعلاج ذلك بيد أولي الأمر قيادة خدمية وشعباً حريصاً على وحدته وأمنه، ورد ذلك إلى الكتاب والسنة يسير، إذ النصوص جلية واضحة ومفسرة.

3 - من الأسباب أيضاً الخلاف المذهبي، وقد فعل مفعوله السيء طيلة عهود الانحطاط، وما زالت آثاره بادية في علاقات المسلمين ببعضهم على رغم الصحوة المعاصرة. وهو موضوع واسع الأكناف متشعب الأطراف له صلة بعدة علوم، علوم القرآن والحديث والفقهاء، والأصول، والتعارض والترجيح، والمنطق، والبحث والمناظرة، كما أن له ارتباطاً بواقع الأمة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً. ونحن إذا ما استعرضنا بإيجاز مجالات الخلاف في الأحكام الشرعية العملية المستنبطة وأسبابه على مدار مراحل التشريع المتعاقبة وجدنا أنها لا تكاد تخرج عن صنفين من الأحكام :

صنف راجع إلى نصوص هي الأدلة النقلية كتاباً وسنةً، واستناداً إليهما بالإجماع، وحملها عليهما بالقياس .

صنف راجع إلى أمارات هي ما سوى الكتاب والسنة والإجماع والقياس مثل الاستحسان والاستصحاب وسد الذرائع وفتحها والمصلحة المرسلة والعرف والعدول عن القياس الجلي الضعيف إلى القياس الخفي القوي، وما سوى ذلك من أمارات تكاد تصل الخمسين .

أما الصنف الأول فمن أهم أسباب الخلاف فيه:

قطعية دلالة النصوص وظنيها، والنص قطعي الدلالة هو ما دل على معنى تعيّن فهمه منه، ولا يحتمل تأويلاً، ولا مجال لفهم غيره منه، أما النص ظني الدلالة فهو ما يكون محتملاً لأكثر من معنى واحد .

النصوص الموهمة بالتعارض مثل أن يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم حكماً في حالة ، وحكماً آخر بالنسبة للمسألة ذاتها في حالة أخرى، فيتوهم المجتهد التعارض، ولا تعارض لاختلاف الحكمين باختلاف الحالتين.

منهج الفقيه في قبول أخبار الآحاد وسيرها ونقدها . فابن حنبل مثلاً يستغني بخبر الآحاد ولو ضعيفاً عن القياس والرأي . ومالك يشترط موافقة الصحيح لعمل أهل المدينة، والظاهرية يعتبرون الآحاد قطعية توجب العلم اليقين في العقيدة والعمل .

قد يبين الشرع طريقتين أو طرفاً لبعض التصرفات، والأخذ بأيّ منها جائز، فيتوهم بعض المجتهدين تعارضاً بين هذه الطرق .

قد يكون الخلاف بسبب وقوع نسخ لم يعلم به الفقيه.

قد يرد في الكتاب والسنة لفظ عام يراد به العموم، وآخر عام يراد به الخصوص ، وقد يرد بصيغة الخصوص فيبدو من ظاهر الألفاظ التعارض ولا تعارض.

كيفية تناول ألفاظ النصوص كتاباً وسنةً، ومنهج تأويلها وتمييز نصها من ظاهرها ومحكمها من مفسرها، وخفيها من مشكلها، ومجملها من مبينها.

الاختلاف في تعيين دلالات الألفاظ وهل هي بإشارة النص أو مفهوم الموافقة أو الأولى أو الاقتضاء، أو المخالفة، أو مفهوم اللقب، أو الوصف، أو الشرط، أو الغاية، أو من حيث دلالة الشمول في اللفظ عاما وخاصا، مطلقا ومقيدا، وكيفية تخصيص العام بالمتواتر أو الآحاد أو القياس أو المصلحة.

وهذه الشمولية في مجال الاختلاف ليست عيبا في الفقه الإسلامي، بل هي من مميزات كماله ومرونته وصلاحيته لكل زمان ومكان وحال، ومن خصائص شريعته الربانية ودينه الذي نسخ ما سبقه من أديان، ونبيه الذي ختمت به النبوة، وأحكامه التي هي حجة للناس أو عليهم إلى يوم القيامة، والرد إلى الكتاب والسنة في هذا المجال يكمن في اعتبار المذاهب الإسلامية كلها مجرد مدارس علمية فقهية لا غير، تتكامل فيما أصابت فيه وتتصاح فيما أخطأت فيه، وهذا يقتضي مراجعة شاملة ودقيقة لكل الاجتهادات الفقهية المختلف فيها، وتصنيفها ومدارستها؛ عندئذ سوف نكتشف أن تشنجننا وأحادية نظرتنا، هما الحائل بيننا وبين الاستفادة منها وتوحيد الصف بها.

4 - من أسباب الاختلاف أيضا موقف الفقه الإسلامي من القضايا التي لا توجد لها نصوص شرعية حاكمة في الكتاب والسنة أو فيما يحمل عليهما بالقياس أو يستند إليهما بالإجماع، إلا إذا تدخل الفقيه مثلا بنوع من التأويل لأدوات استنباط مختلف فيها، كالاتصال المالكي والاستحسان الحنفي والاستصحاب الظاهري، بل قد لا نجد لها من أدوات الأصوليين ما يشفي الغليل. والواجب يقتضي تنظيم حياة الناس باستحداث حلول لها تسائر النشاط البشري وتطوره، دفعا للتظالم، وتحقيقا للعدل والسلم، وتوفيراً لظروف تساهم في رقي الأمة ونهضتها، وذلك ما يطرح على الفقه بالحاح ضرورة التفكير في آلية اجتهاد خاص لهذه القضايا الواقعة في هذه المنطقة ذات "الفراغ التشريعي"، آلية منبثقة من الكتاب والسنة، وتضع الحلول المناسبة الناجعة لما لا تتسع له ضروب الاستنباط الأصولية المعروفة.

إن القضايا المتعلقة بهذا الصنف من الاستنباط حقيقة واقعة في المجتمع، حدثت وتحدثت، ويتجدد شبيه لها ومخالف لها في كل عصر. والفقه الإسلامي واحد في هدفه ومواضيعه، ينبع من

أصل واحد هو الكتاب والسنة، إلا أنه يتأثر بالبيئة التي يعمل فيها، تجارية أو سياسية أو اجتماعية، سلماً أو حرباً. ولا بد من تنظيم حياة الناس في هذا المجال، واستحداث حلول تسير النشاط البشري دفعاً للتظالم، وتحقيقاً للعدل والسلم، وتوفيراً لظروف تساهم في رقي الأمة ونهضتها. ولذلك رأى الفقهاء ضرورة استنباط أحكام للشرع في هذا الاتجاه، هذا الموقف عكس أيضاً مرونة التشريع الإسلامي وصلابته وبعده غوره. ولئن كان هذا المنهج الفقهي الاجتهادي ضرورياً في مجال الأحكام الشرعية العملية، فإنه في مجال التدبير العام للدولة الإسلامية يؤسس للتمزق المذهبي باختلاف الفقهاء في النازلة الواحدة والبلدة الواحدة والمسجد الواحد والزمن الواحد، لذلك لا محيد عن التشريع الشوروي المستند إلى نص صريح من الكتاب هو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ الشورى 38، ونصوص نبوية ثابتة مثل قوله صلى الله عليه وسلم: ( لَوْ كُنْتُ مُؤَمَّرًا أَحَدًا دُونَ مَشُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ لَأَمَرْتُ ابْنَ أُمِّ عَبْدِ [6] )، وفي رواية: ( لَوْ كُنْتُ مُؤَمَّرًا أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنْهُمْ لَأَمَرْتُ عَلَيْهِمُ ابْنَ أُمِّ عَبْدِ )، وفي رواية: ( لَوْ كُنْتُ مُؤَمَّرًا أَحَدًا مِنْ أَنْصَابِ النَّبِيِّ لَأَمَرْتُ بِمَنْعِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ )، وليس هذا الاتجاه ببدعة في هذا المجال، لأن النصوص مهما كثرت وتنوعت أساليب الحمل عليها محدودة إذا ما قيست بما يستحدث من وقائع وما يستجد في كل عصر من أحداث ونوازل؛ كما أن مصطلح " الفراغ التشريعي " ليس غريباً في ساحة الاجتهاد الإسلامي المعاصر، لأن العمل بمقتضاه قد عرفه الصحابة رضي الله عنهم عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعالجه الفقهاء من بعدهم على مر العصور تحت مسميات مختلفة؛ وذلك لأن الشريعة الإسلامية قد حددت أحكاماً ثابتة مستندة إلى نصوص الكتاب والسنة، في وقائع وأحداث وحالات وقضايا معينة، وتركت أحوالاً أخرى شاغرة لم تحدد لها أحكاماً، وأذنت للأمة في التشريع لها بما يناسب ظروفها ومصالحها وخط سيرها، وبما لا يتنافى أو يتعارض مع ثوابت الدين عقيدة وشرعية ونظام حياة، كما هو الشأن حالياً في بعض القضايا المعاصرة نشاطاً تجارياً واقتصادياً وسياسياً وإدارياً وصناعياً واجتماعياً وزراعياً وطبياً وثقافياً، وتعاملاً مصرفياً وتأميناً تجارياً وشخصياً وعلاقات سياسية داخلية وخارجية وقوانين إدارية ونقابية وحزبية وضبطاً لشؤون الملكية الفكرية والقرصنة الصناعية والتقنية والجمركية...

<sup>6</sup> - ابن أم عبد هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

ولئن كان الاجتهاد في مجال ثوابت الأحكام النصية وما يحمل عليها مبنيًا على الموازنة بين الأقوال والأدلة، والترجيح بينها والانتقاء منها والاختيار فيها، بما يراه المجتهد أقوى حجة وأقوم حكماً، فإن الاجتهاد في منطقة الفراغ التشريعي يعد عملاً إنشائياً إبداعياً، لأنه ورد في منطقة العفو وهي التي لا نص فيها ينزل أو يحمل عليه، طبقاً لما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدراً، فبعث الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، وأنزل كتابه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو" وتلا ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِعَيِّرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وسواء كان موضوع القضية من هذا الصنف قد أنشأ له بعض القدماء حكماً، أو طرح حديثاً لأول مرة على مائدة البحث والاستنباط، فإنه دائماً محل اجتهاد متجدد ومتغير بتغير الظروف والأحوال تبعاً للقاعدة الفقهية "لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان".

وسواء كان الأمر متعلقاً بإنشاء أحكام جديدة في المباحات من أنشطة الناس وتصرفاتهم، أو بما يستجد مما لم يعرف من قبل ولم يكشف الوحي له حكماً، رحمة منه تعالى لعباده، وتوسعة وإفاساحاً لحرية الاختيار فيما تقتضي الحياة تكييفه وتنظيمه وتطويره، فإن ذلك كله من مجالات منطقة الفراغ التشريعي.

إن عملية التشريع الشوروي تعني وضعاً لقوانين وإنشاء لقواعد وتنظيماً للشأن العام وتسييراً له، ولكن هذه العملية في ميدان سكت عنه الشرع وفوض للأمة أمر تدبيره أولاً، وخارج دائرة التأيم الديني تحريماً وإيجاباً وإباحة ثانياً، وتحت طائلة المخالفات الدنيوية وحدها منعا وإلزاماً ثالثاً. فإذا تقيّد هذا التشريع بالشورى الجماعية الآذنة فيه، دخل في صميم النهج الإسلامي الرشيد، متميزاً تماماً كاملاً تاماً عن التشريع بغير ما أنزل الله تعالى.

وغير خفي أن مجال الابتلاء الدنيوي بهذا الاعتبار يشمل ثلاث مناطق تشريعية هي:

منطقة التشريع الملزم وهو المستمد من الكتاب والسنة وما يحمل عليهما.

منطقة التشريع المأذون فيه، وهو الموضوع بواسطة الشورى الجماعية، بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ الشورى 38.

منطقة التشريع المحرم، وهي ما سوى المنطقتين السابقتين.

إن دأب الأمة الإسلامية في حالة رشدتها أن تسوس أمرها العام بالكتاب والسنة وما يحمل عليهما، وأن تُقدِّم فيما سوى ذلك على أصل راسخ في الشريعة الإسلامية هو مبدأ الشورى الجماعية العامة، المقيدة بضوابط الإيمان الحق مبدأ ومعادا.

إن مصدر الشورى الجماعية رباني متيقن، وصوابها ثابت قطعي، وتوجيهاتها من الذي خلق الخلق ووضع نواميسه وسننه، وعلم ما يصلح له وما يصلح به، وهي العلاج الحاسم لحالات الاختلاف، والوقاية من أسباب التنازع والخصومة، والكفيلة بحل مشكلة السلطة والتسلط وجعل الناس سواسية، ذكرا وأنثى، شعوبا وقبائل، أكرمهم عند الله أتقاهم، إذا ما بنيت على قواعد العقيدة والشريعة، واستظلت بفيء الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك شرط الإيمان الحق ودليله وأمارته، لذلك عقب عز وجل بقوله:

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إن عملكم بالمنهج الرباني الذي تضمنته هذه الآيات الكريمة دليل على تمام إيمانكم بالله تعالى، وراسخ يقينكم بأنكم ستعرضون عليه يوم الدين للمحاسبة والجزاء ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ذلك المنهج خير لكم في حاضركم ومستقبلكم، وأحسن لكم ﴿تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن لكم في عاقبة أمركم وما يؤول إليه حالكم في الدنيا والآخرة، لأن التأويل لغة هو عاقبة الشيء وما يؤول إليه.

لقد أثبتت التجربة والبحث العلمي المحايد فشل نظم الحكم الوضعية المعاصرة ديمقراطية رئاسية وبرلمانية ومجلسية، في تحقيق المساواة والعدالة بين المواطنين، ولم يبق إلا المنهج الشوروي الرباني قادرا على ضمان ذلك ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ولئن كان الإسلاميون في هذا الزمان متهمين بمعاداة الديمقراطية انحيازا منهم للاستبداد والتسلط - كما يزعم خصومهم - فإن هذا مجرد افتراء ظالم، لأن النظم الاستبدادية والذهنية السلطوية التي تنتجها، وطبيعة الأجهزة التي تحميها هي ما يرفضونه كما يرفضه الديمقراطيون؛ ولأن طبيعة الاستبداد واحدة، لا

تغيير من قطر إلى قطر، أو من أمة إلى أمة، أو من عصر إلى آخر، إنها ذهنية مسلكية واحدة، وإن استبدلت بالقبعة "غترّة"، وبالطربوش طاقيه، ولئن كان الحل الديموقراطي مجرد علاج وضعي انتحلته الثقافة الغربية للتخلص مما هيمن على أوروبا قرونا طويلة من جور وعسف وظلم، فإن هذا الحل لم يحظ إلا بنجاح نسبي في مواطن متعلقة بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه، ولم يستطع أن يحرر أهله من مثابة ثنائية التركيب السياسي للمجتمع المكوّن في ظل الاستبداد من حاكم ومحكوم، وتابع ومتبوع، وسيّد ومسود، ومؤثر ومتأثر، وفاعل ومنفعل، وآمر بيده السلطة ومأمور خاضع له .

إن الديموقراطية الغربية خففت من وطأة الاستبداد، ولكنها لم تستأصله، وهذا ما يميز عنها النظام الشوروي الإسلامي الذي يجتث الاستبداد ويقضي عليه، ويجعل الأمة سواسية كأسنان المشط، لا حاكم ولا محكوم، وإنما توزيع خدمات على مختلف المرافق المتعددة والمتنوعة؛ والإسلاميون بذلك لا يعترضون على الديموقراطية لمجرد أنها غير إسلامية، لأن عدم إسلاميتها نتيجة طبيعية بالنظر لجذورها ومنشئها الثقافي؛ وهي حاليا خير مما كان لدى أهلها من تسلط مذل، وخير مما لدى المسلمين حاليا في ميدان السلطة من ظلم وعسف وتجبر واستبداد، إلا أن هدفنا أبعد غورا مما حققته الديموقراطية، هدفنا القضاء التام على الاستبداد والقهر، وعلى الشائبة غير المتكافئة في العلاقات الإنسانية، وليس من سبيل إلى ذلك إلا الشورى القرآنية، وهذا جوهر ما نرمي إليه ...

هذا هدفنا وذاك مسعانا فهل من حقنا ذلك؟

## الضلال البعيد:

### إعراض عن منهج الإسلام وإقبال على مناهج غيره

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا (66) وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (68) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (70) ﴾

اختيار المرء بين ما ينفعه وما يضره دليل على مستوى عقله وعلمه، ومدى سلامة فطرته التي هداها ربها عز جل إلى نجدي الخير والشر بقوله: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ البلد 10، ثم جعل لكل نجد صعوبته، نجد الخير صعوبته في سلوكه، ونجد الشر صعوبته في عواقبه، وإنما يحتاج المرء إلى العقل والعلم للتمييز بينهما واختيار أحدهما، إذ بهما يستبين الصواب من الخطأ والرشد من السفاهة، فينزح إلى الخير على مشقته وكراهية النفس له لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات، وينزع عن الشر تجنباً لمرارة ما يؤدي إليه، وإن تافت إليه النفس وأصرت عليه. ذلك أن العاقل إذا عرض عليه أمر تبين مصدره ومآله، ومبتدأه ومنتهاه فإن كان من مصدر هزيل الرأي قاصر الفهم تركه، وإن كان من عليم حكيم قادر مقتدر تمسك به وركن إليه وصدق العمل به، أما

الجاهل فحسبه من اختياره لقمة يسيغها وشهوة يقضيها ومصلحة آنية يقتنصها ومآل شقاء لا يحفل به أو يتذكره.

ولئن كان سوء الاختيار أغلب على طبائع الناس من حسن الاختيار فإنما ذلك لما ران عليها من خفة العقل وضحالة العلم، وما كانت السفاهة والجهل يوما حجة للناس عند ربهم، لأنه تعالى قد خلق الإنسان بفطرته سويا فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين 4، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس 10/7، ثم أمده بأدوات الاختيار الرشيد وحيلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة نبوية هي الأسوة الحسنة والمثل الأعلى والمرشد إلى حسن الاختيار، ثم خاطبه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ الزمر 41.

في هذا السياق عرضت آيات الحلقة السابقة على البشرية منهجا لتدبير الشأن العام تتحاكم إليه، بعد أن شقي الناس بمنهج عقولهم القاصرة الضعيفة، وجربوا أنظمة للحكم كسروية وقيصرية وديمقراطية يونانية ومجلسية ورتاسية وبرلمانية، فلم يتم لهم أمن ولم تتحقق لهم مساواة ولا عدل ولا حرية ولا كرامة، وأصبح تمام رشدهم وسعادتهم لا يتحقق إلا باختيار هذا المنهج القرآني الرشيد، لأنه من خالق الكون ومدبره أولا، ولأنه بريء من الجهل والقصور والهوى والجور والمحاباة، ولأن عاقبته سعادة الدنيا والآخرة، ولأن العمل به دليل صدق الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ولئن كان الإيمان الحق هو ما وقر في القلب وصدقه السعي والعمل، فإن الناس في التعامل مع هذا المنهج أربعة أصناف، صنف مؤمن به اعتقادا وعملا، وصنف مؤمن به عاجز عن العمل به، وصنف كافر به معاد له، وصنف أشد خطرا على الأمة في أمرها الجامع وشأنها العام، لسانه يدعي الإيمان وعمله يعلن الكفر، وغاية جهده التشكيك في صلاحيته للتطبيق، وفي صدق العاملين به والساعين من أجله، وهو طابور المنافقين.

لذلك ما إن عرض القرآن الكريم في الآيات الكريمة السابقة هذا المنهج حتى عقب بالتحذير من طابور المنافقين الذي يعلن الولاء بلسانه ويمارس التخريب بعمله وسعيه فقال عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ أي: يدعون ما ليس حقا، من "الزعم" وهو حكاية قول يكون مظنة للكذب، ولذلك يقال: الزعم مطية الكذب، وقد ذم القرآن القائلين به في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ التغابن 7، وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ الكهف 48، وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ الإسراء 56.

ولفظ "الطاغوت" من فعل "طغى" إذا تجاوز الحد في العصيان، ومنه قوله عز وجل: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ النازعات 17، ويقال "طاغوت" لكل معبود من دون الله، وكل باطل مغرق في البطلان، وكل معتد أو مستبد أو مصادر لحرية الناس بغير حق، أما التحاكم إلى الطاغوت فهو اتخاذه مرجعا لتنظيم الحياة وتديير شأن الأمة العام تشريعا وتسييرا وفصل قضاء.

والخطاب في هذه الآية موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إلى كافة المسلمين بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية... وهو استفهام إنكاري تعجبي لحال المنافقين الذين يدعون الإيمان بالله وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الرسل قبله، ثم يفضلون التحاكم إلى مناهج الطغيان والكفر. ويفهم من هذا الاستفهام أنه لا يجوز اتخاذ غير منهج الله كتابا وسنة مرجعا أو حكما، وأن الإيمان بالله وما أنزل من الكتاب لا يتم إلا بنبذ أنظمة الطغيان بكل أصنافها ومسمياتها اعتقادا وعملا، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ البقرة 256. ولا يخفى أن مفهوم الشرط في هذه الآية أن من لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى التي هي الإيمان بالله ورسوله، وهو بذلك بمعزل عن تمام الإيمان، ولذلك عقب الحق سبحانه مؤكدا وجوب

الكفر بالطاغوت شرطا لتمام الإيمان بقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أمرهم صاحب الأمر تعالى في جميع كتبه المنزلة بأن يكفروا بالطاغوت وينبذوا التحاكم إليه اعتقادا واتباعا وطاعة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل 36، لأن الكفر به شرط الإيمان بالله وركنه، ولا يجتمع في قلب مؤمن إيمان بالله مع إيمان بطاغوت أبدا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الزمر 17.

وليس من سبب لعبادة الطواغيت في كل عصر إلا ما يزينه الشيطان لأوليائه من حرص على مصالح وأهواء وشهوات ظالمة منحرفة، وما يريد له من ضلال عن طريق الحق، وهو معنى قوله عقب ذلك: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ بتزيين التحاكم للطاغوت ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أن يبعدهم عن طريق الهداية وسبل التوبة إبعادا كبيرا، ويقصيهم عن الإيمان الحق بالله ورسوله، وعن معرفة الأحكام الشرعية عبادة وتقاضيا وولاء وبراء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء 136، وقوله: ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الحج 12.

ولئن كان سبب نزول الآية في رجل من اليهود خاصم منافقا فدعاه للتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدله، ودعاه المنافق إلى التحاكم لكاهن مرتش، فنزلت الآية فيهما وفي صنفيهما، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو بذلك توبيخ شديد لكثير من المسلمين في هذا العصر بنبذهم التحاكم إلى منهج الإسلام في الحكم والقضاء وتدبير الشأن العام، واتباعهم ما لدى غير المسلمين من نظم وتشريعات وقوانين وضعية تتعارض مع ثوابت الدين وأحكامه، وإصرارهم على ذلك كما هي عادة المنافقين في كل عصر، وكما بينه الوحي في قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾. وقوله عز وجل: ﴿تَعَالَوْا﴾ أمرٌ بالإقبال على رسول الله صلى الله عليه وسلم والتوجه إليه وحضور مجالسه لتلقي تعاليم الدين ومناهجه، وتحكيم القرآن الكريم والسنة في حال حياته وبعد وفاته.

أما الصدود والصد لغة فهو الانصراف والإعراض عن الشيء كما في هذه الآية الكريمة، وقد يكون معنا عنه نحو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ النحل 88. أما قوله تعالى: ﴿صُدُّوْا﴾ فهو مصدر مؤكد لفعله ﴿يُصُدُّونَ﴾ أي ينصرفون عنه انصرافا شديدا.

ومعنى الآية الكريمة أن المنافقين لشدة تمسكهم بالضلال كلما دعوا إلى منهج الله في الكتاب والسنة أعرضوا عنه وتمادوا نفورا منه وتكبيرا عنه وإصرارا على ما وجدوا عليه آباءهم، كما بينه الحق سبحانه في موضع آخر بقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ المنافقون 5، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ المائدة 104.

ولئن كان إعراضهم دائما لا يكون إلا استكبارا وتمردا، أو حرصا على منفعة آنية، أو في حال شعورهم بقوة فيهم، أو ضعف في المسلمين، كما هي عادة الكفار والمنافقين منذ عهد نوح عليه السلام إذ خاطب ربه عز وجل بقوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ نوح 7، فإن سنة الله فيهم أن يؤول أمرهم عاجلا أو آجلا إلى سوء، لذلك عقب الوحي الكريم بالتنبيه إلى ما ينتظرهم من محن ومصائب وفتن جزاء تمردهم على ثوابت الدين، وتلاعبهم بأحكام الشرع سرا، مع إعلانهم الإيمان بها جهرا، فقال تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي كيف يكون حالهم إذا حلت بهم عقوبة نفاقهم، ففضحتهم واضطرتهم للاستنجاد بالرسول صلى الله عليه وسلم في حياته، أو بالمسلمين بعد وفاته، متسترين على نفاقهم، ومقسمين بالله أنهم لم يقصدوا بما فعلوا إلا إصلاح ذات البين والتوفيق بين أطراف النزاع مؤمنين وكفاراً، أو بين المناهج المتعارضة والآراء المتضاربة طلبا للأمن والسلامة؟، وكيف يعاملهم المسلمون وقد انكشف صدودهم عن الحق، وإصرارهم على التمسك بما لديهم من

ضلال؟ وهل يستحقون العطف عليهم إذا أصابهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾؟.

ويأتي التوجيه الرباني مباشرة عقب هذا الاستفهام الإنكاري لتصرفاتهم بقوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أولئك المنافقون الذين يخفون حقيقة نواياهم وأهدافهم ويلفون المعاذير والحجج الواهية أمرهم غير خفي على الله تعالى، وهو الكفيل بفضح ما تنطوي عليه جوانحهم، القادر على كف شرهم. إلا أن حكمته عز وجل لا تغلق باب التوبة عن الذنب، ولا توصل طريق الأوبة إلى كنف الإيمان والإحسان، بل تفتح لهم سبيلا من الرحمة معالمه الحلم والموعظة ومواصلة التربية والتعليم وبيان الأخطاء المرتكبة بقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أعرض عن أقوالهم وعن عقابهم أو عتابهم، ولا تهتك لهم سترا أو تظهر لهم علمك بما في بواطنهم، وقابل تصرفاتهم بالحلم، ﴿وَعَظُّهُمْ﴾ ببيان عاقبة النفاق والتلاعب بالأحكام الشرعية ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ بين لهم بقول واضح مؤثر ما يشين أعمالهم ويحبط إيمانهم.

وبعد تقرير ضلال من يتحاكمون إلى غير منهج الله، ويعصون أوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، وبيان طريقة إصلاحهم بالحلم والموعظة الحسنة والتوعية المؤثرة، أنزل تعالى قاعدة عامة في إرساله الرسل كافة فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإذن الله في هذه الآية الكريمة هو أمره وعلمه وتوفيقه وإرشاده، أي إنه تعالى ما أرسل من رسول إلا وقد أرشده إلى ما ينبغي تبليغه وعمله، وفرض على المؤمنين طاعته واتباعه والتحاكم إليه وتحكيمه في كل ما يختلفون فيه، لأنه مؤد عن الله، وطاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ النساء 80. واجبان على المرسل والمرسل إليه، على المرسل التبليغ قولا وعملا وقدوة، وعلى المرسل إليه الإيمان بالرسالة والطاعة للرسول بما يقتضي تنزيل منهج الله تنزيلا عمليا في الحياة بكل قيمها وأوضاعها ونظمها وأخلاقها وعلاقاتها وعباداتها ومقاصدها، وليس على من ظلم نفسه من العصاة والمذنبين والمخطئين إلا أن يتوب فتحتضنه رحمة الله بالمغفرة والعفو، والله عز وجل

(يسبط يده بالليل ليتوب مسيء النهار و يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها [7]). لذلك حض الوحي الكريم كل الذين تحاكموا إلى الطواغيت، أو أعرضوا عن حكم الرسول عليه السلام، أو صدوا عن منهج الله تعالى على الاستغفار والتوبة بقوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي إن أولئك المنافقين لو أنهم جاءوك معتردين، نادمين على ما فرط منهم، مستغفرين الله لذنوبهم فسألت لهم المغفرة لتاب الله عليهم وغفر لهم ولوجدوا ﴿اللَّهُ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، والحال نفسه يجده في كل زمان ومكان من تورط في ظلم نفسه بكفر أو شرك أو نفاق أو خطيئة، باب التوبة مفتوح له على مصراعيه لا يصد عنه صاد إلا من نفسه أو من الشيطان، وليس عليه إلا أن يعود إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ليتبين الرشد من الضلال، ويستغفر لذنبه فيستظل بعفو ربه التواب الرحيم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر 53.

وبعد أن حدد الحق سبحانه مصدر منهجه للحياة، وطريقة تلقيه وفهمه والعمل به مرجعيةً و طاعةً وتوبةً، بين أن ذلك كله لا يقبل إذا كان مجرد طقوس شكلية وتصدية جوفاء بقلوب خالية من الرضا والتسليم فقال عز وجل:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

وتحكيمة صلى الله عليه وسلم فيما شجر بين المسلمين يعني التقاضي إليه فيما يحدث بينهم من خلافات ومنازعات حال حياته، وتحكيم الكتاب والسنة النبوية بعد وفاته، في كل ما يتعلق بجميع القضايا الدينية والدينية عبادات ومعاملات وتسييرا للشأن العام، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة 44 وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المائدة 45 وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المائدة 47.

<sup>7</sup> - حديث صحيح رواه مسلم والنسائي.

إن الحق سبحانه وتعالى يقسم بنفسه في هذه الآية الكريمة أنه لا يتم إيمان امرئ حتى ينقاد لحكم رسوله صلى الله عليه وسلم ويطيع أمره ظاهرا وباطنا، ويسلم الأمر كله لمنهج الإسلام تسليما تاما برضا نفس وإقبال قلب، كما بين في مواضع أخرى أن هذا التسليم يجب أن يتجلى في واقع الحياة سمعا وطاعة، أي تلقيا ومبادرة بالتنفيذ والعمل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ النور 51، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ القصص 68.

هذا ما ينبغي أن يستقبل به المؤمنون أمر الله تعالى، سمعا وطاعة ورضا وتسليما، وليس للمخالفين ممن آمنت ألسنتهم وكفرت قلوبهم وأعمالهم إلا أن ينتظروا وعيد الله تعالى لهم بالعقوبة، فتنة تدمعهم، أو مصيبة تصيبهم، أو تكليفا فوق طاقتهم يفضح نفاقهم ويكشف زيف إيمانهم كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النور 63. لذلك جعل الحق سبحانه منافقي العهد النبوي بين خيارين، تحذير من عاقبة إصرارهم وتمردهم وعصيانهم، وتشويق إلى ثمار الصدق والإخلاص والطاعة.

أما الخيار الأول فهو إشارته تعالى للمنافقين إلى ما ابتليت به طائفة من اليهود قبلهم إذ حُمِلوا ما لا طاقة لهم به في حياة موسى عليه السلام، وتهديدهم بقوله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ والضمير في قوله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد للمنافقين ومن في صفاتهم وأعمالهم، أي لو أمرهم الله تعالى بقتل أنفسهم أو تعريضها للقتل المحقق أو المظنون ظنا راجحا، كما أمر به بنو إسرائيل شرطا لقبول توبتهم إذ عبدوا العجل فقال لهم موسى عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ﴾ البقرة 54، أو أمرهم بالخروج من ديارهم ومغادرة أوطانهم وهجرتها ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ أي: لم يفعل المأمور به من القتل والهجرة إلا قليل منهم، أو لم يفعلوه مطلقا، لأن العرب يكونون بالقليل عن المعدوم، ويضعون لفظ "قليل" في معنى النفي كقولهم: فلان قليل الحياء، أي لا حياء له، ومنه

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَدْكُرُونَ﴾ النمل 62 أي: لا تتذكرون ولا تتعظون، وتلك عادة المنافقين دائما لرداءة طباعهم وخبث طوبتهم.

أما سبب نزول هذه الآية الكريمة فهو أن اليهود عندما لم يرض منافق بحكم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: "ما رأينا أسخف من هؤلاء، يؤمنون بمحمد ويتبعونه، ويطؤون عقبه، ثم لا يرضون بحكمه، ونحن قد أمرنا بقتل أنفسنا ففعلنا، وبلغ القتل فينا سبعين ألفا"، فقال ثابت بن قيس وعمار وابن مسعود: "لو كتب ذلك علينا لفعلناه". وقال أبو بكر الصديق "لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا"، وقال عمر: "والله لو أمرنا رينا لفعلنا، والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك"، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إن من أمتي رجلا، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي).

وأما خيار الحض على إثثار الصدق والإخلاص والطاعة، فهو قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ لو أنهم استجابوا لوعظ الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجهاته فتابوا وأخلصوا وأطاعوا الأوامر والنواهي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ خيرا لهم مما اختاروه لأنفسهم من نفاق، وأكثر تثبिता لهم على الإيمان والعمل الصالح ﴿وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وكان جزاء ثباتهم على الإيمان والعمل الصالح أجرا عظيما وثوابا جزيلا من الله تعالى. ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ صراطا يفتح لهم به باب السعادة والتوفيق، وينير لهم به معالم العرفان، ويوصلهم إلى الجنة، صراطا هو الكتاب مبيّنا بالسنة النبوية، وقد قال عنه الحق سبحانه: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الشورى 52/53.

ولئن كان جزاء التوبة والإصلاح قد ورد في هذه الآية مجملا، فإنه تعالى ترغيبا في الطاعة وتشويقا لنعيم الآخرة، أردفه في الآية الموالية مفصلا فقال عز وجل:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بامثال تعاليم الدين أمرا ونهيا ومنهج حياة ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المطيعون ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بدخول الجنة ونزول أعلى مراتبها.

﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ ودرجات أنبياء الله تعالى عليهم السلام متفاوتة، أعلاها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ البقرة 253، وقد روي أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له عليه الصلاة والسلام، قليل الصبر عنه، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله فقال: "يا رسول الله ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنني عرفت أنك تُرفع مع النبيين، وإن أُدخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك، وإن لم أُدخل فذاك حين لا أراك أبداً"، فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية، فقال عليه الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده لا يؤمن عبداً حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين)، كما روي أن أنساً قال: "يا رسول الله الرجل يحب قوماً ولما يلحق بهم"، فقال عليه الصلاة والسلام: (المرء مع من أحب).

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ أي السابقين إلى التصديق والإيمان وإخلاص القول والعمل، وهم كرام أصحاب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن عمل بعملهم وسار على نهجهم.

﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ الذين قتلوا في سبيل الله من أجل نصره كلمة التوحيد وإقامة أمر الإسلام، وقال عنهم الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران

171/169

﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الذين صرفوا أعمارهم في طاعته، وأنفقوا أموالهم في مرضاته، وقال عنهم عز وجل: ﴿وَيَسِّرِ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة 25.

ثم أتى الله تعالى على هؤلاء الرفقاء في الجنة بقوله:

﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ والرفيق لغة بمعنى المرافق، يستوي فيه المفرد والجمع، أي: إن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أحسن رفقاء الجنة، لما لهم من فضل وحسن عشرة ودرجات عالية، وما هم فيه من نعيم. أما المعية معهم فلها فضلها الذي يقدره الله تعالى بعلمه وحكمته، من دون أن تُحِلَّ بدرجة أي منهم.

ويختتم الحق سبحانه بتعظيم ما خصهم به فيقول:

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ ذلك الثواب العظيم، وما نالوه من كرامة وحسن رفقة في الجنة ليس إلا بفضل الله تعالى وكرمه، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ وكفاهم علم الله الواسع بما في قلوبهم من صدق الإيمان وصالح الأعمال، في تقدير الأجر وإسباغ النعم؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم شرحا لقول الله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس 26: (إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، قالوا: ألم يبعض وجوهنا وينجنا من النار ويدخلنا الجنة؟ قال: فيكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه).

إن مبنى الوجود البشري في الأرض على هذين الخيارين، خيار سبيل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وخيار سبيل الكافرين والمتمردين والمنافقين، وليس لأي أمة مفر من أن تختار بينهما، وقد وردت هذه الآيات الكريمة تعقيبا منه تعالى على الآيات السابقة المتعلقة بالنظام السياسي الإسلامي، وغير خفي على مطلع أن هذا النظام بدأ أول عهده راشدا، وخلافة على نهج النبوة، فتسئم المسلمون به أعلى مراتب المجد والسؤدد والكرامة، والحرية والأمن والسلام، ثم أخذ انحراف الحكام يبعدهم عن المسار الرشيد تدريجيا، وتبتعد الأمة تبعا لذلك عن السواء وسداد الأمر، إلى أن أعرضت مطلقا عن منهج الله تعالى في تدبير أمرها العام وصدت عنه واختارت غيره، فأضحت مغنما لأعدائها، يستنزفون خيراتها ويستذلون أبناءها، ويعيشون في أرجائها فاحشة وشدوذا وفسادا، وامتألت قلوب أهلها حقدا وبغضاء وتحاسدا وقسوة، وأشربت نفوسهم البخل والشح والحرص وعبادة الأهواء، وألبسوا شيئا وفرقا وعصابات

متناحرة سالت بها الدماء أنهارا، وانتهكت بها أعراض الأحرار والحرائر جهارا، وحق فيهم جميعا قوله عز وجل: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ النحل 112-113.

## نصرة المستضعفين جهاد في سبيل الله

قال الله تعالى: ﴿بَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (71) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةً يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (73) فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)﴾

تكتسب جميع الأعمال قيمتها من سمو مقاصدها وعلو غاياتها ونبل أهدافها، إلا أن ذلك كله عند المسلم لا يتم إلا بأن يجمع إلى شرف الدنيا وخيرها شرف الآخرة ونعيمها، ولا مقصد أعلى وأعز وأشرف في هذا المجال من إنقاذ الإنسان في الدنيا من ظلمي الشرك والاستضعاف، وفي الآخرة من غضب الله وعذابه. تلك مهمة الأنبياء والرسل عبر الأجيال، من نوح وإبراهيم عليهما السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، لا سيما وقد جرت سنة المستكبرين في الأرض أن يحتقروا المستضعفين ويستعبدهم ويكفروهم، ويستنزفوا جهودهم ويقيموا بهم الممالك ويوقدوا بهم الحروب، حتى إذا استنفذوا قواهم رموا بهم إلى الضياع والفاقة، هذه سنتهم من عهد إرم ذات العماد وفرعون ذي الأوتاد وشمود الذين جابوا الصخر بالوادي، بينون بمستضعفيهم في كل بقعة آية عليهم بها يخلدون، إلى عصر يشن بهم الغرب المعاصر حروبه العدوانية مقابل بطاقة إقامة في دوله، أو فتات راتب لا يسمن ولا يعني من جوع. ومن قبل استضعف المشركون نوحا عليه السلام وقالوا له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ﴾ هود27، وأمروه بطرد المؤمنين من صفه وقالوا: ﴿قَالُوا أَنْوُمُنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدُلُونَ﴾ الشعراء111، فكان جوابه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

الشعراء 115/114، واستضعف قوم مدين أخاهم شعيبا عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ هود 91.

ولعل من حكمة الله تعالى في تربية الرسول الأكرم أن أنشأه يتيما مستضعفا بين قوم أشد شركا وعتوا على الضعفاء، فكان أعرف الناس بحقيقة الظلم وأسبابه ونتائجه، وأقدرهم على استيعاب الوحي وتنزيله حيا نديا بين الناس. فلما قام المستكبرون من قريش لعزل المستضعفين وإقصائهم عن الدين الجديد الذي حررهم من الشرك ورفع همهم عن هوان الاستكانة وذلة الضعف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوجيه من ربه خير مدافع عنهم وأقوى نصير لهم وأشد منحاز إلى صفهم.

لقد بدأت معركة الإسلام في أول عهدها مع رموز الشرك والاستكبار، بما نال الرسول عليه الصلاة والسلام من عدوان قريش واضطهاد ثقيف وعبدة هبل وإساف ونائلة، وكان لا يفتر عن الاستنصار بربه وحده، داعيا في السر والعلن: (اللهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتِي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكَلَّمُنِي؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟...)[8].

وعندما بدأت تبشير انتشار الإسلام وأقبلت عليه جموع المستضعفين، خاف المشركون وأرسلوا الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وكان معه خباب وبلال وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية وصهيب وأشباههم من ضعفاء المسلمين، فأتوه فخلوا به وقالوا: "إنا نريد أن تجعل لنا مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جنناك فأقمهم عنك فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت" فقال صلى الله عليه وسلم: (نعم)، فنزل جبرائيل عليه

8 - الدعاء بتمامه: (اللهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتِي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكَلَّمُنِي؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سَخَطُكَ، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك ) الرحيق المختوم للمباركفوري 100/1

السلام بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنعام 52، وعن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في بعض أبياته: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ الكهف 28، فخرج يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس، وجافي الجلد وذو الثوب الواحد، فلما رأهم جلس معهم وقال: (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم).

إن الفقراء والمستضعفين لإخلاصهم وصدق إيمانهم هم رصيد القوة والنصرة للإسلام والمسلمين في كل عصر، ولذلك ما فتى الرسول صلى الله عليه وسلم يذود عن حقهم في المساواة والكرامة والحرية والعيش الكريم في كل مجلس، ويقول: (ابغوني الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم)، ولما قدم المدينة وأقطع الناس الدور وفيهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال حيي من بني زهرة: "نكّب عنا [٩] ابن أم عبد"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فلم ابتعثني الله إذا؟ إن الله لا يقدر أمة لا يؤخذ للضعيف فيهم حقه)، ولما رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلا على من دونه قال صلى الله عليه وسلم: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟).

ولئن كان المستضعفون الذين هاجروا إلى المدينة قد نعموا بالأمن ونالوا حقهم في المساواة والعدل والحرية، فإن أشتاتا من المستضعفين في القبائل حول المدينة، وطائفة أخرى في مكة بقيت محاصرة، يمنعهم المشركون من الهجرة ويؤذونهم ويحقرونهم ويصادرون ممتلكاتهم، وآخرين من المؤمنين في المدينة مكر بهم مشركو القبائل واستدرجواهم إلى الصحراء وقتلواهم غدرا كما وقع لقراء بعث الرجيع، إذ قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر صفر، من السنة الثالثة من الهجرة، نقر من عضل والقارة وزعموا أنهم أسلموا، ورغبوا أن يبعث معهم

<sup>9</sup> - نكّب عنا: نحّ عنا.

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفرًا من المسلمين يعلمونهم القرآن ويفقهونهم في الدين، فبعث معهم ستة رجال هم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق فنهضوا مع القوم حتى إذا صاروا بالرجيع، وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز غدروا بهم.

لكل هذه الصنوف من الغدر والظلم وخيانة العهود التي مورست ضد المسلمين من قبل المشركين نصرة لآلهم وذبا عنها، انتقل الوحي من الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمر بأشد التكاليف والواجبات، جهادا في سبيل الله وتحريرا للمستضعفين في مكة والجزيرة من نير العبودية، وتحريرا لعقولهم من الضلال، وقلوبهم من الخوف، وإخراجا لهم من سجن حاكمية المخلوق إلى رحابة الحرية وحاكمية الخالق، فأمر أولا باتقاء مكر العدو والحذر من خداعه، وذلك أكبر قواعد القتال، وأن يعدوا للجهاد عدته وبأخذوا له أهبتة، ويتخذوا للتحصن من عدوهم كل الأسباب، فقال عز وجل محذرا ومحرضا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ وَالْحِذْرُ وَالْحَذْرُ وَاحِدٌ كَالِإِثْرِ وَالْأَثْرِ وَالشَّبْهِ وَالشَّبْهَ، وَالْحِذْرُ هُوَ الْإِحْتِرَاسُ وَالْإِحْتِرَازُ مِنَ الْمَخُوفِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِدَفْعِ الْمَكْرُوهِ بِمَا يَنَاسِبُهُ.

ولفظ ﴿خُذُوا﴾ استعارة لمعنى شدة الحذر، لأن حقيقة الأخذ تناول الشيء الذي كان بعيداً عنك، ولما كانت الغفلة تشبه البعد عن الشيء وإلقاءه، كان تذكره يشبه تناوله بعد إلقاءه، وأخذ الحذر ملازمته والتمسك به وجعله وسيلة وأداة لاتقاء المخاطر، تخطيطاً وإعداداً للقوة، وتطويراً لوسائل الدفاع ومحافظة دائمة على وحدة الصف، ومراقبة يقظة للعدو واستخباراً عن مقاتله واحتراساً من أوليائه المندسين منافقين ومنفلتين، ممن يوهنون العزائم ويشبطون الهمم.

ولئن كان الأمر في هذه الآية بأخذ الحذر واستدامة النعبة الدفاعية قد نزل في ظروف تألب فيها مشركوا العرب من كل القبائل على المسلمين بعد صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة، إذ قبلوا فيه شروطاً ظننت مجحفة، فإن عموم اللفظ يقتضي وجوب استدامة الحذر في كل أحوال المسلمين القتالية والعلمية والتربوية والإدارية والصناعية ونظام تدبير الشأن العام،

لأنهم مستهدفون من قبل أعدائهم في كل عصر، بمقتضى ما أخبرهم به تعالى بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ البقرة 217.

ثم فرع عن الحذر ما يستتبعه من العمل الميداني للمدافعة وكف شر العدو فقال تعالى:

﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَانْفِرُوا﴾ من فعل: نفر نفرا، مكسور عين المضارع وبها قرأ السبعة، يقال نفر القوم عن الشيء إذا عرضوا عنه، ونفروا من المجلس إذا تفرقوا، ونفروا إلى الجهاد إذا أسرعوا إليه وهو معنى الآية الكريمة، ومنه الحديث الحديث: (وإذا اسْتَنْفَرْتُمْ فأنفروا) أي إذا سئلتهم الخروج للجهاد فأجيبوا مسارعين وأنفروا معجلين.

وقوله تعالى: ﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع مفردة ثبة والأصل فيها ثبوة وهي الجماعة من الخيل أو العصابة من الفرسان، من فعل ثبا يثبو، واوي اللام كما هو الاختيار عند المحققين، يقال ثبوت له خيراً بعد خير أي وجهته إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ معناه: انفروا إلى العدو إما ثبات، أي جماعات متفرقة، جماعة تلو جماعة وسرية بعد سرية، وإما جميعا متعاضدين في جيش واحد متكامل، وهذا يعني أن الأمة ينبغي أن تكون في حالة تعبئة مستمرة واستعداد دائم للجهاد، حتى لا تؤخذ على غرة أو تستنيم لغفلة كما قال تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمَّتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ النساء 102.

وقد كان التطبيق النبوي لهذه الخطة الحربية المعدة لحماية المستضعفين المسلمين المنتشرين في مكة والقبائل يخافون أن يتخطفهم الطير، على ما أرشدت إليه الآية الكريمة ثبات وجميعا، بحسب ما اقتضته ظروف الحرب وحاجياتها، وفي الوقت الذي كانت السرايا تبعث متتابعة إلى القبائل كان الإعداد لغزو مركز ثقل العدو ومجمع قواته في مكة جميعا.

هكذا استنفر الرسول صلى الله عليه وسلم للجهاد عدة سرايا منها: سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني المُلُوح بَقْدِيد، في صفر أو ربيع الأول سنة 7 هـ؛ و سرية حِمْي، في جمادي الثانية سنة 7 هـ؛ وسرية عمر بن الخطاب ومعه ثلاثون رجلاً إلى ثُرْبَة في شعبان سنة 7 هـ، وسرية

بشير بن سعد الأنصاري في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة بناحية فدك، في شعبان سنة 7هـ ؛ سرية غالب بن عبد الله الليثي في مائة وثلاثين رجلاً، في رمضان سنة 7هـ إلى بني عُوَال وبني عبد بن ثعلبة بالمَيْفَعَة، وقيل إلى الحُرَقَات من جُهَيْنَة، ؛ وسرية عبد الله بن رواحة في ثلاثين ركباً إلى خيبر، في شوال سنة 7هـ ؛ وسرية بشير بن سعد الأنصاري في ثلاثمائة من المسلمين إلى يمن وجَبَار، وهي أرض لعطفان، وقيل لَفَزَارَة وَعُدْرَة، في شوال سنة 7هـ ، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة؛ وسرية أبي حَدْرَد الأسلمي إلى الغابة، ذكرها ابن القيم في سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء.

أما النَّفْرُ جميعاً فقد كان بعد ذلك عندما أعلن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسير إلى مكة، وأمر الناس بالاستعداد والإعداد، ودعا الله تعالى في أن يأخذ عن قريش الأخبار ويستتر عنهم خروجهم، فنفر المسلمون جميعاً للجهاد، وخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعشر خلت من رمضان في عشرة آلاف مقاتل، فصام عليه السلام حتى بلغ الكديد، ثم أفطر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد صلاة العصر، وشرب على راحلته علانية ليراه الناس، وقال: (تَقَوُّوا لعدوكم)، وأمر الناس بالفطر، فأفطر بعضهم وصام بعضهم، فلم يعب على الصائم ولا على المفطر، وكان ما كان من فتح مابين لمكة المكرمة لعشر بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة، إذ دخلها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منتصراً وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه.

ولئن كان خصوص سبب النزول لا يقدر في عموم اللفظ ما أدى إلى مصلحة معتبرة، فإن النَّفْرَ ثباتٍ والنَّفْرَ جميعاً في الجهاد القتالي لا ينفي وجوب النَّفْرِ لجهاد البناء تشبيهاً وصناعة وتطويراً وبحثاً واختراعاً علمياً، ثباتٍ وفصائلٍ وسرايا مدنية، كل حسب استعداده وتخصسه وما يتقنه، ووجوب النَّفْرِ جميعاً في مجال تدبير الشأن العام تشاوراً وتقريراً وتقنيناً في مناطق الفراغ التشريعي، وتسييراً وتنفيذاً ومراقبة ومحاسبة.

كان هذا هو التطبيق النبوي للآية الكريمة من أجل حماية مستضعفي المسلمين المحاصرين في مكة ومختلف القبائل المشتركة، إلا أن في قلب المعسكر الإسلامي بالمدينة نفسها أعداء

آخرين من المنافقين، منبئين يتحينون فرص الانقضاء عليه وتوهين صفه وتثبيط همم المخلصين عن الجهاد، حذر منهم الحق سبحانه بقوله عقب ذلك:

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَئَنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِيُبْتَئَنَّ﴾ من "البطء" وهو نقيض الإسراع في ممارسة أي عمل أو الانبعاث إليه، كما في قولك: بطؤ مجيئه أو بطؤ في مشيه، فإن تعمد البطء وتحراه وتكلفه قيل: "تباطأ"، فإن تباطأ وحرص غيره على البطء قيل: بَطَّأً يُبْطِئُ، أي تأخر وأخر غيره، كما في هذه الآية الكريمة المؤكدة بالجملة الإسمية وحروف ثلاثة للتأكيد هي: إن، ولام القسم، والنون، التي يحذر الحق سبحانه فيها من المنافقين المنبئين في الصف الإسلامي، يبطون العزائم، ويوهنون الصف، ويمارسون التبطئة بإصرار، يبطون أنفسهم فيقعدون متتالين ويبطون غيرهم بتضخيم مخاطر الجهاد على النفس والمال والولد، مما يشير إلى شدة خطر هذه الشرذمة المريضة على المجتمع الإسلامي في كل عصر.

إن التبطئة سلاح أعداء الإسلام في كل عصر، سواء عند الدعوة لجهاد البناء أو جهاد المدافعة، في جميع الميادين الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وغيرها، وهي ما يعبر عنه حديثا بالمقاومة السلبية، إذ يعمد المندسون في الصف إلى المراوغة والمماطلة أو تنفيذ الأوامر والمشاريع بما يخربها أو يجعلها عديمة الجدوى، أو التعامل مع ثروة الأمة بما يبدها ويصرفها عن أهلها، تحت غطاء الادعاء بالإخلاص وحسن النية، أو مع أسرارها بما يكشفها للعدو بادعاء الغفلة والسذاجة أو غلبة الظروف، ولذلك زاد الوحي الكريم المؤمنين تبصرة بهم، وكشف دخائل نفوسهم وحقيقة تصرفاتهم في حالين من أحوال المؤمنين، حال الهزيمة أو حال النصر فقال تعالى في الحال الأول:

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بقتل أو هزيمة أو محنة ما ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ قال المنافق المتخلف عن الجهاد فرحا: من نعمة الله علي أن نجوت مما أصابهم ﴿إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: إذ لم أشهد القتال معهم ولم أحضره واتخذت بتخلفي عنهم وقاء من ذلك، كما ذكر تعالى في آيات أخرى أن المنافقين في مثل هذه الحالات يفرحون بتخلفهم وبما يصيب المؤمنين من بلاء كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ آل عمران 120، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ﴾

مُصِيبَةً يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿التوبة 50﴾، وقوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ التوبة 81.

إن نعمة الله الحقيقية لا يفقهها إلا الصادقون ولكن المنافق إذ قال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ قد عميت عينه عنها لأنه لا يدرك كنه الحياة الدنيا ولا يرى إلا مظاهرها المادية ومكاسبها الآنية وعمي بصره عن حقيقة نعمة الابتلاء وكونه مجرد تمحيص للمؤمن وتطهير له ورفع لدرجته وتأهيل له إلى أسنى الدرجات في الدنيا والآخرة، وأنه النعمة المرضية التي يختص بها الله تعالى من يحبهم من عباده ليحررهم من قيود الأرض ويرفعهم إلى الملاء الأعلى مع الأنبياء والصديقين.

أما في الحال الثاني، حال انتصار الصف الإسلامي في أي مجال من المجالات التي تخلف عنها المنافقون فإنهم يعضون أصابع الندم على ما فاتهم من غنائم ومصالح في المعارك الرابعة التي تخلفوا عنها كما بينه تعالى بقوله:

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فُضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ نصر وغنيمة وظفر ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ ليقولن المنافق قول من لم يدع من قبل أن بينه وبينكم مودة ولم يزعم أنه من أهل دينكم: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ يا ليتني لم أتخلف عن القتال معهم، ولو شاركت لفرزت بسهم من الغنيمة عظيم. وهو لقصور نظره وعماء بصيرته عن مغنم الآخرة جعل الغنائم المادية أقصى ما يطمح إليه وأعظمه. والقرآن الكريم في آيات أخرى يكشف مواقف هؤلاء المنافقين في محاولتهم تدارك ما فاتهم من الغنائم واسترجاع مكانتهم الانتفاعية من الصف المسلم، فهم وإن ساءهم ما نال المسلمين من فضل كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَسْنَاكُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ﴾ 120 آل عمران، وقوله: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ﴾ التوبة 50، يحاولون الاعتذار عن تخلفهم كما أخبر الحق سبحانه النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الفتح 11، وقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ الفتح 15.

ثم ينصرف الخطاب عنهم مزدريا حالئهم، جينا وانتهازية رخيصة مخلدة إلى الأرض، ويمضي ليشوق المؤمنين الصادقين إلى ما هو خير وأبقى وأعز وأشرف، بقوله تعالى :

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه الآية أمر من الله سبحانه للمؤمنين بالجهاد، لورود لام الأمر في أولها، والأمر للوجوب، لكن الجهاد في سبيل الله فقط، لا في سبيل مجد وسلطان، أو منصب وجاه ومال، أو لفخر بغلبة وشجاعة، أو من أجل عصبية قومية أو حزبية أو طبقية، ولا يقبل عند الله إلا من ﴿الَّذِينَ يَشُرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ الذين يبيعون الحياة الدنيا، ليأخذوا عطاء الآخرة الجزيل، يسترخصون متع الدنيا وزينتها مالا وولدا ومعيشة لينة هنيئة ليحظوا برضا ربهم ونعيم جنته، في صفقة رابحة بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة 111.

ثم وثق تعالى هذه الصفقة بقاعدة ملزمة ينتج شرطها مشروطها إلى يوم الدين بقوله:

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ إشارة إلى أن المجاهد الحق يجب أن يوطن نفسه على تحقيق أحد هدفين، استشهاد أو نصر، كما قال صلى الله عليه وسلم (تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان به وتصديق برسوله أن يدخله الجنة أو يرجعه إذا رجع إلى منزله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفسي بيده لولا أن أشق على أمتي ما تخلفت خلاف سرية تغزو في سبيل الله)، ليس للمجاهد من قتاله إلا هدفان، موت في سبيل الله أو تغلب على عدوه وقهره، ولا مجال لحال ثالث فرارا أو استسلاما أو صلحا على قبول ظلم وخذلان، على وعد منه عز وجل بأن يؤتي المجاهد الصادق أجرا عظيما في الحالين، قال عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ التوبة 52، حسنى الاستشهاد وحسنى النصر، وكلاهما طريق إلى الجنة وإلى ما هو أحب وأشرف من الجنة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل: تريدون شيئا؟ أزيدكم؟، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟، قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب

إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يونس 26.

إن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد شعار معنوي لا وجود له في الأرض، ولكنه سعي حثيث وبذل متواصل لإقامة أمر الله إمامة رشيدة للبشرية، ومنهجاً واقعياً ينقذها من نير الاستعباد والاضطهاد والاستضعاف، وذلك ما يمثل نبل غايته وشرف مقاصده ومتانة سنده وشرعية مرجعيته؛ لأن الإمامة ليست شرفاً وترفاً، ولكنها بلاء شاق تناط به مسؤولية إنقاذ الإنسان من مختلف صنوف الظلم، ظلم الشرك والكفر وظلم الاستعباد والاضطهاد والفساد، والإسلام بمقتضى هذه الإمامة لا يقبل أن تتخلى الأمة عن مهمتها هذه، وتترك مستضعفيها رهائن محاصرين بيد أعدائها، لأن مسؤولية إنقاذهم والدفاع عنهم من صميم عقيدة الجهاد في سبيل الله وأهدافها النبيلة، لذلك عقب الحق سبحانه بقوله:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ أي: ومادامت هذه عاقبة المجاهدين نصراً أو استشهاداً يعقبهما خلود في الجنة، فكيف يقعد المسلمون عن الجهاد في سبيل الله وهو ذو مقصد سام وهدف نبيل غايته إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

ولفظ "المستضعفين" لغة من: "الضعف" وهو خلاف القوة. يقال ضَعُفَ يَضْعُفُ فهو ضعيف، سواء كان ضعفه في نفسه أو بدنه أو حاله، واستضعفه غيره إذا استهان به وقابله بالاستكبار والتعالي والتجبر كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ سبأ 33.

ويراد بالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان في هذه الآية الكريمة طائفة من المسلمين بمكة منعهم المشركون من الهجرة إلى المدينة، من الرجال فيهم الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، أما النساء فقد كن ذوات أزواج وأولياء مشركين يمنعونهن من الهجرة مثل أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط، وأم الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس، وقد كن يؤذَيْن ويحَقَّرْنَ، وأما الْوِلْدَانُ فهم الصغار من أولاد المؤمنين والمؤمنات ومنهم ابن عباس رضي

الله عنه وقد قال بعد هجرته: "كنت أنا وأمّي من المستضعفين من النساء والولدان"، وكان الآباء والأمهات يقاسون على يد المشركين ضروب الاضطهاد والتعذيب والقهر، والأبناء يألمون لمشاهدة ما ينال آباءهم وأمّهاتهم وحاضناتهم وذويهم من الأذى، وكلهم يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع ويسألونه أن ينقذهم من ذلة الاستضعاف و هوانه، أما الرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يهدأ له بال انشغالا بأمرهم وشفقة عليهم، وكان يدعو لهم في قنوته بالنجاة ويقول: (اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدّد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف)؛ لذلك نزل الوحي يستجيش المروءة في نفوس المسلمين، ويستثير الرحمة في قلوبهم، ويستنهض في همهم نصره الأخوة، ويكشف لهم مدى شقاء المستضعفين المحاصرين في مكة ويصف حالهم بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾. والمراد بالقريّة الظالم أهلها مكة لأن أهلها حينئذ كانوا مشركين والشرك أعظم الظلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان 13، أما ما سأله من ربهم فلم يكن مالا ولا متاعا ولا زينة من الحياة الدنيا، وإنما كان مرآة صافية لصدق إيمانهم ووضوح تصورهم العقدي، فقد سألوا ربهم أولا مفارقة المشركين والالتحاق بالفئة المؤمنة والمجتمع المسلم لأن من طبيعة الإيمان أن يارز<sup>[10]</sup> إلى الإيمان ويسعى إليه، ولأن الأرواح أجناد مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، ولأن المبدأ في مساكنة المشركين قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين) قالوا: "يا رسول الله لم؟" قال: ( لا تراءى ناراهما).

10 - يارز أي: ينضم، وفي الحديث: (إن الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها) أي: ينضم إليها ويجتمع بعضه إلى بعض فيها.

وسألوا ربهم ثانيا أن يسخر لهم بعنايته من يتولى أمرهم ويعينهم على الخروج من مكة - وهي وطنهم ومقام أقاربهم -، والالتحاق بالمسلمين في المدينة، لأن رابطة الإيمان أقوى من روابط الأرحام والأوطان.

وسألوا ربهم ثالثا أن يقيض لهم من يقودهم إلى النصر على المشركين، والتمكين للإسلام والمسلمين؛ وقد استجاب الحق سبحانه دعاءهم فيسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة، وجعل لمن بقي منهم فرجا بفتح مكة على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم فكان لهم خير ولي وأعز ناصر.

والآية في عمومها تعبير عن جوهر ما في الإسلام من رحمة، إذ لم تفرق بلون أو عرق أو دين بين المستضعفين والملهوفين في استحقاق العطف والنصرة والعون والاستنقاذ، كلهم شبه أسرى في يد ظالمهم ومضطهديهم وكلهم يجب استنقاذهم، كما أمر صلى الله عليه وسلم في أحاديث صحيحة كثيرة - والأمر للوجوب - بنصر الضعيف وعون المظلوم وفك العاني وإغاثة الملهوف، ولم يميز في ذلك بين مسلم وغير مسلم، بين أسود أو أبيض أو أحمر.

ثم عقد الحق سبحانه للتحريض على الجهاد نصرة للمستضعفين مقارنة بين أهدافه وبين أهداف القتال لدى غير المسلمين فقال عز وجل:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وسبيل الله أن يكون لإعلاء كلمة الحق والتوحيد والعدل ونصرة المستضعفين، ومن كان هذا نهجه وقصده سارع إلى تلبية الأمر واقتحام المنايا وحظي بتأييد الله ونصره.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وكل ظلم طاغوت، وكل استبداد أو استعباد أو اضطهاد طاغوت، وكل اعتداء باستعمار أو سلب أو نهب أو استضعاف طاغوت، ومن كانت هذه صفاته كان الشيطان من أوليائه والهزيمة من نصيبه، ووجب على المؤمنين قتاله وكف أذاه لقوله تعالى معقبا:

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أَمْرٌ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقِتَالِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالظَّالِمِينَ، مُسْتَعْبِدِي خَلْقِ اللَّهِ وَمُسْتَضْعَفِيهِمْ، وَتَحْرِيزُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اقْتِحَامِهِمْ وَالْجَرَاءَةِ عَلَيْهِمْ، وَعَدَمُ التَّهْيِيبِ مِنْهُمْ، لِأَنَّ قُوَّتَهُمُ الظَّاهِرَةَ مَبْتَوْتَةٌ الصَّلَاةِ بِمَصْدَرِ الْقُوَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَهْمَا انْتَفَشُوا وَتَعَالَوْا وَاسْتَكْبَرُوا فَإِنَّ كَيْدَهُمْ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَى ضَعْفٍ وَهَزِيمَةٍ.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَقَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ حَرًا سَوِيًّا وَجَعَلَ حَرَمَتَهُ أَعْظَمَ مِنْ حَرَمَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، لَمْ يَرْضَ لَهُ الْمَهَانَةَ وَالذُّلَّةَ أَوْ الْاسْتِكَاةَ وَالْإِسْتِضْعَافَ، وَأَوْجِبَ عَلَيْهِ الدَّفَاعَ عَنِ نَفْسِهِ وَحَرَمَتِهِ، وَأَعْطَى الْمُؤْمِنَ دَرَجَةَ الشَّهَادَةِ إِنْ قَتَلَ دُونَ عَرَضِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ دِينِهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الرَّجُلَ تَدَخَلَ حَرَمَتَهُ فَلَا يَمْتَنِعُ) وَقَالَ: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)، إِلَّا أَنْ ظَرُوفًا قَدْ تَطَرَّأَ عَلَى الْعَبْدِ فَتَجْعَلُهُ فِي حَالَةٍ شَلَلٍ تَامٍ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ، وَخُضُوعٍ مُطْلَقٍ لِعَدُوِّهِ، وَعَجْزٍ عَنِ الْفِرَارِ وَالْهَجْرَةِ. هَذَا هُوَ الْإِسْتِضْعَافُ الْمَعْدُورُ بِهِ صَاحِبُهُ، كَمَا كَانَ حَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَحْتَ حُكْمِ فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الْقِصَصُ 4، وَحَالُ مُسْتَضْعَفِي مَكَّةَ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْجِهَادِ لِتَحْرِيرِهِمْ مِنْ يَدِ آسْرِيهِمْ. وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِسْتِضْعَافُ عَذْرًا فِي الشَّرْكِ بِاللَّهِ، أَوْ فِي الْغَدْرِ بِالْمُسْلِمِينَ وَالتَّجَسُّسِ عَلَيْهِمْ أَوْ تَوْهِينِ صَفِهِمْ وَمَوَالَاةِ أَعْدَائِهِمْ. أَمَا مَا عَدَا ذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَرْضَخَ لَطَاغُوتٍ مُتَجَبِّرٍ، أَوْ يَخْضَعُ لِقَهْرٍ تَنْتَهَكُ بِهِ حَرَمَاتِهِ، أَوْ يَسْتَسَلِمَ لِإِسْتِضْعَافٍ يَضِيعُ بِهِ دِينَهُ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَدْفَعَ عَنِ عَقِيدَتِهِ وَعَرَضِهِ وَبَيْتِهِ وَمَالِهِ، فَإِنْ عَجَزَ وَجَبَ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنْ كُلِّ قَطْرٍ تَحْرِيرُهُ وَالدَّفَاعُ عَنْهُ، وَإِلَّا كَانُوا آثِمِينَ جَمِيعًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ نَاصِرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِضَعْفِهِمْ أَوْ تَخَاذُلِهِمْ، هَاجَرَ إِلَى أَرْضٍ تَصَانُ فِيهَا كِرَامَتَهُ وَحَرِيَّتَهُ وَدِينَهُ وَأَسْرَتَهُ، وَإِلَّا كَانَ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ النِّسَاءُ 97.

## المنافقون بين القول والفعل والسمع والطاعة

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَّرُوا مِنَ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (83) ﴿

القول الحسن يتبعه العمل به هو السداد والحكمة، والقول السيئ يتبعه الفعل السيئ هو المجاهرة والفحش، والقول الحسن يعقبه العمل بضده هو النفاق، والمؤمن الحق ينبغي ألا تقعد به همته عن الجمع بين القول الحسن وما يلزمه من الفعل الحسن، والمطابقة بين خفي نيته وشاهد قوله وعمله، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان)؛ ولئن كان النفاق لغة هو مخالفة الباطن للظاهر، فإن القول والفعل تطابقا وتعارضاً دليل على ما في القلب من إيمان أو نفاق؛ إلا أن حالة أخرى قد تكون وراء الخلف بين القول والفعل، هي حالة الجبن الذي قد يعتري المؤمن لضعف في نفسه أو في تكوين شخصيته بما لا يقدر على إيمانه أو يلحقه بزمرة المنافقين، والفيصل في الأمر كله نية المؤمن وما في قلبه من صدق إيمان أو زيف نفاق، لأن الأصل في الدين النية والقول والعمل فإن تخلف العمل وحده جبننا لم ينتف الإيمان، لذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

المؤمن الجبان في الدرجة الثانية من الشهداء إن قتل في المعركة بقوله: (الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان، لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا. ورجل مؤمن جيد الإيمان، لقي العدو فكأنما ضرب جلده بشوك طلح من الجبن، أتاه سهم غَرَب<sup>[11]</sup> فقتله، فهو في الدرجة الثانية. ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا، لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الثالثة. ورجل مؤمن أسرف على نفسه، لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الرابعة)

هذه الحالات من تطابق القول والفعل أو تعارضهما هي ما أفرزه مجتمع المسلمين أول عهدهم بالهجرة إلى المدينة، ومواجهتهم أعداء دينهم من المشركين وأهل الكتاب، وقد كانوا من قبل في مكة أول ظهور الإسلام لقلّة عددهم وكثرة أعدائهم، وحرمة القتال في البيت الحرام ابتداءً، مأمورين بالصلاة والصدقات ومواساة الفقراء، والصبر على المشركين والإعراض عنهم وعدم التعرض لهم بما يستفزهم أو يشير جهالتهم، ولم يحاول الخروج عن هذا النهج إلا نفر ضاقوا ذرعا بأذى المشركين وتسلطهم واضطهادهم وأخذوا يتحرقون لمنازلتهم وقتالهم ويودون لو أمروا بالجهاد في سبيل الله، منهم عبدُ الرحمن بنُ عوفِ الزُّهري والمقداد بن الأسود الكندي وقدامة بنُ مظعون الجُمحي وسعد بن أبي وقاص الزُّهري رضي الله تعالى عنهم، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: "يا نبي الله، كنا في عزّ ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أذلة" فقال لهم صلى الله عليه وسلم: (إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم).

وقبل ذلك إذ بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا نيفا وثمانين، وقالوا: "يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي - يعنون المشركين - ليالي منى فنقتلهم؟" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني لم أؤمر بهذا). فلما اشتد بغي المشركين، وهاجرت طائفة من أصحابه إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم بدوره إلى المدينة فاجتمع بها شمل المسلمين وصارت لهم حصنا ومنعة ودار إسلام شرع الله تعالى جهاد المعتدين كفا لشركهم ونصرة للمستضعفين بقوله عز وجل: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ

<sup>11</sup> - سهم غَرَبَ وسهم غَرَبَ: لا يُدْرَى مَنْ رَمَاهُ ولا من حيث أتى.

اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿39/ 40﴾؛ وكان قد ظهر بالمدينة أيضا في المسلمين عامة تطلع لحرب المشركين ومناجزتهم، وفيهم فئة قليلة حديثة عهد بالإسلام تحمست كذلك للقتال ودعت إليه ثم ما لبثت طائفة منها بعد فرضه أن كرهته جبنًا وخشية من الناس، وطائفة أخرى كرهته نفاقًا وتبطلًا وتشيطًا للمسلمين؛ لذلك بادر الوحي إلى معالجة هذه الظاهرة بكشف دواعيها واستئصال جذورها في النفوس المؤمنة والمعسكر الجهادي بنزول قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ والخطاب في هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لرسوله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، يشير انتباههم لهذه الظاهرة وتعجبهم من إحجام من جبن عن القتال عند فرضه ومن نافق وثبط وبطأ، وقد كانوا من قبل راغبين فيه يكادون يباشرونه تنطعا وتهورا وعصيانا لتوجيهات القرآن وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهم المسلمون كافة في الفترة المكية وأول الفترة المدنية، وكانوا قلة ضعافا بين أعداء كثر أقوياء، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ الأنفال 26، ولم يكن مطلوبا منهم بعد الإيمان إلا أن يكفوا أيديهم عن قتال المشركين، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة<sup>[12]</sup>، بما يؤدي إليه ذلك من ثبات على الدين وتزكية للنفوس والأخلاق وتقوية لأواصر المحبة والتعاون والتآزر بين المؤمنين.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ فرض عليهم القتال وأمروا بالخروج إليه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ إذا للمفاجأة جواب لَمَّا، أي كانت المفاجأة الغريبة أن انكشف جبن بعضهم وخوفهم من عدوهم كخيفتهم من ربهم بل أشد خوفا، ثم لم يكتفوا بذلك

<sup>12</sup> - الزكاة في الفترة المكية لم تكن ذات نصب.

فاعترضوا على إرادة الله واستنكروا إيجاب القتال في سبيله ﴿وَقَالُوا﴾ جزعا من الموت ونفورا من الجهاد: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ؟﴾ لم فرضت علينا القتال وفيه هلاك النفس والذرية والمال؟، بل رأوا أن رأيهم في هذا الأمر أنسب وأكثر حكمة مما كتبه ربهم عليهم بقولهم: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لو ما أخرت فرضه إلى فترة أخرى تناسبنا ويتم فيها استعدادنا، أو إلى الأجل المقدر لوفاتنا وهو قريب مهما طال العمر، من قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الْآخَرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الزمر 42.

لقد اختلف المفسرون في تعيين المعنيين بهذه الآية وما بعدها، فقال قوم إنهم جماعة من حديثي العهد بالإسلام لم يكونوا راسخين في العلم جنبوا طبيعة لا اعتقادا ثم تابوا عند سماعهم التذكير القرآني، والإيمان يزيد وينقص وأهل الإيمان يتفاضلون فيه. وقيل هم جماعة كانت مؤمنة فلما فرض القتال نافقوا من الجبن وتخلفوا عن الجهاد، وزعم آخرون أنهم الصحابة الذين سألوا القتال في مكة ثم ترددوا عند فرضه في المدينة، إلا أننا نجزم ببطلان هذا الزعم مهما كانت الروايات التي فهم منها هذا الفهم، ونبرئ كرام السابقين الأولين المبشرين بالجنة كعبد الرحمن بن عوف وأصحابه. كما أن ضعف الإيمان من المسلمين ولو جنبوا لا يتصور فيهم الاعتراض على ما يقدره الله ويكتبه، ولا السؤال عن علة ما يأمر به أو ينهى عنه إلا أن يرتدوا عن الإسلام، ولم يسجل التاريخ أن أحدا في العهد النبوي مما سوى المنافقين فارق دينه وارتد عنه.

لذلك نرى أن هذه الآيات متصلة بما سبقها من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيْطَنَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ النساء 72، وأنها امتداد لمعركة الإسلام في مواجهته للمبطين من المنافقين الذين ظهروا في المدينة فوجب الحذر منهم وكشف أحوالهم ونواياهم وأعمالهم، ودعوة للاعتبار بموقف سابق لليهود من بعد موسى عليه السلام إذ أمروا بالقتال فجنب أكثرهم كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّنَا لَئِن لَّمْ يَأْتِنَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّنَا لَنَكْفُرَنَّ بِكَ وَلَنَكْتُمِبَنَّ عَلَيْكَ فَتَوَلَّىٰ إِلَيْنَا فَمَا نُنْفِقُ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ فَأْتِنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ سُبُلَ الْبَلَاءِ﴾ البقرة 246. قال ابن عباس: "نهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم".

ولذلك بادر الحق سبحانه بتصحيح التصور الإيماني المختل لديهم مشيدا بالمتقين الذين هم خير قدوة للناس وأحسن أسوة للعالمين بعد الأنبياء والرسل عليهم السلام، فقال عز وجل:

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ بَيْنَ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنْ مُتَعَ الدُّنْيَا مَالًا وَبَنِينَ وَشَهَوَاتٍ وَجَاهًا قَلِيلَةً مَهْمَا طَالَ الْعُمْرُ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْقَطَعٍ قَلِيلٌ. ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ دَائِمٌ وَنَعِيمٌ لَا يَنْقَطَعُ لِمَنِ اتَّقَى غَضَبَ رَبِّهِ بِطَاعَتِهِ وَامْتِثَالَ أَمْرِهِ فَعَلًا وَتَرْكًا، كَمَا أَنَّهَا شَرٌّ دَائِمٌ وَحَسْرَةٌ مُقِيمَةٌ لِمَنْ كَفَرَ وَعَصَى ﴿وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلاً﴾ لِأَنَّ فِيهَا يَفْصَلُ يَوْمَ الدِّينِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَأَهْلِهِ وَالشَّرِّ وَأَهْلِهِ، بِمِيزَانٍ لِلْعَدْلِ لَا غِبْنَ فِيهِ وَلَا ضَيْرٌ وَلَا بَخْسٌ، وَلَا يَظْلَمُ بِهِ أَحَدٌ أَبَدًا.

ولئن كان الحزن هو الذي دفع المنافقين لطلب التأخير إلى أجل قريب لأنهم توهموا أن القتال يدينهم من الموت، أو يدني الموت منهم، فإنما ذلك تلبيس أو هام وغيب رؤية وضلال في التصور، لأن الموت سبيل كل حي، وداعيه للمرء في كل لحظة، كتابا مؤجلا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ آل عمران 45، لا يصده من غير الله صاد، ولا يدفعه مكان أو زمان، ولا تقربه شجاعة أو يبعده جبن أو تنجي منه حيلة، هذا هو التصور الإيماني السليم الذي ينبغي أن يستشعره المؤمن والفهم السليم الذي ينبغي أن يتضح في ذهنه عن الموت بقوله تعالى عقب ذلك:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ لا منجى من الموت الذي من أجله يفر المنافق من القتال إذا ما استوفى أجله، ولو احتمى منه في الحصون المنيعه عالية البروج متينة البناء، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجمعة 8، لقد غيب عن المرء زمنه ومكانه وحالته، في سفر أو حضر أو ليل أو نهار، فلا يدري متى ينفرد في قبره وينخلو إلى عمله، ليكون على أهبة لذلك في كل آن، ويشتاق إلى ما شوقه إليه ربه ويخاف مما خوفه منه في كل لحظة، فينعكس ذلك في نواياه وأعماله، قال صلى الله عليه وسلم: (اذكر الموت في صلاتك، فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحري أن يحسن صلاته، وصل صلاة رجل لا يظن أنه يصلي غيرها)، والفرق بين المؤمن وغيره في مواجهة الموت أن الأول موقن بأن أجل الله إذا جاء مُسَمًّى

وَأَتِ وَلَا يَقْدَمُ أَوْ يُؤَخَّرُ، فَيُؤَثَّرُ أَنْ يَكُونَ الْمَوْتُ فِي الْقِتَالِ زِيَادَةً فَضْلًا بِالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَغَيْرِ الْمُؤْمِنِ يَرَى الْقِتَالَ اسْتِعْجَالًا لِلْمَوْتِ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ فَيَفِرُّ، وَلَيْسَ الْفِرَارُ مَنْجِيًا وَلَا عَاصِمًا؛ ذَلِكَ مَصْدَرُ الْخَلَلِ وَأَصْلُهُ فِي عَقِيدَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ آل عمران 156.

ثم ساق الوحي الإلهي ثلاث خصال أخرى من خصال المنافقين كل منها تنبئ عن خلل في تصورهم الإيماني فقال تعالى عن الأولى:

﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ والحسنة ما سر المرء والسيئة ما ساءه، وكما تطلقان على الطاعات والمعاصي تطلقان على النعم والبلايا كما في هذه الآية الكريمة، وكان اليهود والمنافقون في المدينة كلما أصابهم خصب أو نعمة نسبوها إلى الله تعالى، وإن أصابهم جرب وقحط اطيروا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وقد روي أنه بسط عليهم الرزق لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، فدعاهم إلى الإيمان فكفروا فأمسك عنهم بعض الإمساك، فقالوا: "ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه"، ذلك قول المشركين دائما عند مواجهة المرسلين، قالته ثمود لصالح عليه السلام: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ النمل 47، وقاله أصحاب القرية للمرسلين: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ يس 18 / 19، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ الحج 11، "كان الرجل يُقَدِّمُ المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وَنَتَجَتْ خَيْلَهُ قَالَ: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تُنتج خَيْلَهُ قَالَ: هذا دين سوء".

لذلك عقب الحق سبحانه بتصحيح هذا التصور الفاسد وشجب غباء أربابه وضلالهم بقوله

عز وجل:

﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يصحح تصورهم الفاسد، ويرشدهم إلى الحق، ويبين لهم أن كل ما أصابهم من خصب ورخاء أو جذب وقحط من الله تعالى حسب حكمته في تدبير الكون، رحمة ولطفا وتفصلا، أو ابتلاء وتطهيرا، أو مجازاة وانتقاما، من غير أن يكون لأحد من خلقه مدخل في قوع شيء من ذلك، وليس للمؤمن إلا أن يقيد النعمة بالشكر، ويدفع البأس بالتضرع والرجاء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ الأنعام 42 / 43.

ثم يعقب الوحي ينعي على المشركين والمنافقين غباءهم وعجزهم عن فهم ما بينه القرآن واستيعاب ما يرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم، وتدبر حكمة الله في الخلق، بأسلوب استفهامي يقرر هذا القصور العقلي لديهم ويؤكد ويتعجب منه بقوله تعالى: ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾.

وبعد أن بين الوحي الكريم مصدر النعم والبلايا وأنها منه تعالى، عرج على مصدر الحسنات والسيئات يصيها الإنسان فقال تعالى مخاطبا كل الناس بصيغة المخاطب المفرد، تأكيدا لفردية العمل وفردية الحساب والجزاء:

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ لأنه تعالى هداك إليها يلفظه وإرشاده وهديه، وأقدرك على كسبها بوافر إحسانه، وكتب لك الجزاء الأوفى على فعلها بكرمه وجوده، فكانت المنّة لله وحده في كل الأحوال، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (قاربوا وسددوا فإنه ليس أحد منكم بمنجيّه عمله) قالوا: "ولا أنت يا رسول الله؟" قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل).

﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ما أصابك من سيئات وأحاط بك من آثام، جلبته لك نفسك، بإعراضك عن الهدى النبوي، واتباعك أهواءك، ونسيانك أمر الآخرة وما ينتظر فيها،

وقد ورد في الكتاب العزيز ما يفيد مفاد هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ الشورى 30، وقوله تعالى: ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا قُلْتُمْ أَنَّى هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ آل عمران 165. ولا مبرر من عقل أو دين للتطير من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نسبة ما يصيبكم إليه، فإنما هو مجرد رسول من

ربكم يبلغكم الكتاب والحكمة ويطهركم ويزكيكم، وليس له من أموركم شيء، لذلك التفت الوحي الكريم يخاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ كَافَّةً رَسُولًا﴾ من ربك تبلغهم رسالته وتعلمهم الكتاب والحكمة كما قال تعالى في مواطن أخرى من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة 2.

ثم عقب عز وجل بقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ تكفيك شهادة الله تعالى على صدق رسالتك وتمام تبليغك وعدم تقصيرك في الإرشاد والتعليم بشارة ونذارة، وعلى مدى استجابة الناس لما دعوتهم إليه وطاعتهم لما أمرتهم به، وإذا شهد الحق جل جلاله لرسوله بذلك كُفي واستغنى عن شهادة غيره. أما أمر الهداية والاستجابة فليس إلا لله تعالى كما قال في آية أخرى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ الْقِصَص 56.

ولئن كانت وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم هي التبليغ وما يقتضيه من بشارة ونذارة وتعليم وإقامة شهادة، من غير أن يشارك الله تعالى في خاصية من خصائص الألوهية والربوبية، فإن طاعته مما لا يستغني عنها أداء الرسالة، لأنه ما جاء إلا ليبلغ ما أمر الله به، وطاعته في حقيقتها طاعة لله، لذلك عقب الوحي بقوله تعالى:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ على الجزم والتأكيد، ومن يعصه فقد عصى الله، وليس هناك طريق آخر لطاعة الله غير طاعة رسوله، وفي ما أخرجه البخاري عن جابر في حديث الملائكة الذين جاؤوه صلى الله عليه وسلم وهو نائم وقالوا: (... فالدار الجنة والداعي محمدًا صلى الله عليه وسلم، فمن أطاع محمدًا صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله، ومحمد صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس)، كما روي أن هذه الآية نزلت عندما قال صلى الله عليه وسلم: (من أحببني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله) فقال المنافقون: "ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل؟ لقد قارف الشرك وهو ينهي أن يُعبَد غير الله، ما يريد إلا أن نتخذَه ربًا كما اتخذت النصراني عيسى".

﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ التولي حقيقة الانصراف والإدبار، أي من انصرف عنك وأعرض عن طاعتك ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ فقد خرج أمرهم عن دائرة رسالتك التي كلفت بها، وليس لك أن تحفظ عليهم أعمالهم أو تحاسبهم عليها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، لأن حسابهم من أمر الله تعالى وهو القائل: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فِإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ الرعد 40، والقائل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ السجدة 22.

أما الخصلة الأخرى من خصال المنافقين فهي النظاهر بالطاعة وإضمار العصيان، قال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يقولون إذا أمرتهم: سمع وطاعة، أو سمعنا وأطعنا ﴿فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ غادروا مجلسك وتواروا عنك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ والتبييت من البيوتة وهي قضاء الأمر وتدبيره بالليل، أي: استسر فريق منهم ليلا غير ما قلت لهم وأضمروا عصيانك ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتيبين، ويثبتته في صحائفهم فيجازيهم بما يستحقه نفاقهم وكفرهم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ النور 47.

لا شك أن هذا العصيان والتآمر المبيت ليلا مما يثير حفيظة الصادقين، ويستفز المخلصين الحريصين على نجاح الدعوة والتمكين لها، ولكن حكمة الله تعالى وهو الأعلم بعباده تقتضي إمهال المنافقين ومطاولتهم بالإعراض عنهم وأخذهم بظاهر ما يبدون، والتغاضي عما يُعلم من حقيقة نواياهم وتبييتهم، لعلهم يتدبرون ما أنزل من القرآن فيتعظوا ويتوبوا، ولذلك أمر الحق سبحانه نبيه عليه السلام بقوله:

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ انصرف عن الانشغال بأمرهم ولا تكثرت بمكرهم أو تخش عداوتهم أو تحزن لخلافهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وحده، ولا تتوكل على طاعتهم أو نصرتهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكَيْلًا﴾ يكفيك اعتمادك وتوكلك على الله تعالى ونصرته إياك. أما المنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون فإنما آفتهم وضلالهم في الإعراض عن تدبر القرآن الذي يتلى عليهم كل آن، فلا يستمع أحد منهم إليه بقلبه وعقله كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا

خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿16﴾ محمد، لذلك دعاهم الحق سبحانه إلى تدبر القرآن لعل الغشاوة التي على قلوبهم تنقشع وتنجلي، بقوله عز وجل:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ هلا تدبروا القرآن الكريم بعقولهم ليعرفوا أنه من ربهم عز وجل. إن العاقل إن تدبره لا يخفى عليه إعجاز ألفاظه وتعابيره ومعانيه وما أتى به من منهج للحياة يناسب كل جيل وكل بيئة وكل مجال وكل مستوى علمي أو ثقافي. ولا يغيب عنه عدم تعارضه مع الحاجات البشرية السوية أو خصائص الشعوب وحقوقها، كما أن تناسقه وتكامله وعدم اختلاف معانيه وتوجيهاته، ومرونته لاستيعاب كل ظاهرة اجتماعية بغية ترشيدها وإعلائها وتطويرها، دليل آخر على أنه من الحق سبحانه، إذ لو كان من غير الله لتجلت فيه صفات البشر نقصا واختلافا وتناقضا ومصادمة للفطرة ومصالح الناس. ولئن عَرَضَتْ لأحدٍ شبهةٌ وظن اختلافًا في شيء من القرآن، فليتهم نظره وقصور فقهه، لأن ما ظنه اختلافًا ليس إلا لتغير أحوال الناس وظروف القضايا وتنوع الأحداث الواجب ضبطها بمقاصد الشريعة وحكمتها وأحكامها. ولما كان القرآن هو دواء القلوب المريضة وسر صفاء الأفتدة السليمة وثباتها على الحق، فقد أمر الحق سبحانه المنافقين بتدبر معانيه لعل مرضهم ينجلي والغشاوة عن أبصارهم تنقشع، فيتطهروا من أكدار الشرك وغباوة حب الدنيا وشقاوة الغفلة عن الآخرة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد 24.

من هذه الآية الكريمة فرض الحق سبحانه على كل من بلغه القرآن مسلماً أو غير مسلم أن يتدبره ويفهم معانيه ويستوعب منهجه للحياة، لأنه حجة له أو حجة عليه يوم القيامة، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (هل لك يا عائشة أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟)، فقلت: "يا رسول الله إني لأحبُّ قُربَكَ وأحبُّ هواك، قد أذنت لك"، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يُكثِر من صب الماء، ثم قام يصلي فقرأ من القرآن وجعل يبكي حتى بلغ الدموعُ حِقْوِيهِ، ثم جلس فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وجعل يبكي ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بليت الأرض، فأتاه بلالٌ يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له: "يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟" فقال: (يا بلال، أفلا أكون عبداً

شكوراً؟)، ثم قال: (ومالي لا أبكي وقد أنزل الله تعالى علي هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الخ..، آل عمران 190، ثم قال : (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)، وفي رواية: (ويل لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأملها).

ويعني السياق يصور حال الطائفة الثالثة من المنافقين بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ وهو حال المنافقين إذ كانوا يتسقطون عورات المسلمين في حالات السلم والحرب، ويتلقفون أخبار السرايا التي توجهت للجهاد، من نصر وغنيمة أو أمن وخوف أو قتل وهزيمة، فيعيدون صياغتها حسب أهواءهم ويتخذونها أداة لحربهم الإعلامية على المسلمين، بإشاعة الأراجيف التي من شأنها أن تترك الصف وتضعف معنويات جهلة العامة وأغرارهم، من الذين يتلقفونها وينشرونها سذاجة دون تمحيص أو تبين وتثبت، قال صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)، وهذه الآية تنكر فعل من يبادر إلى ما يصله من أخبار فيفشيها وينشره قبل التأكد من صحته وعدم إضراره بالمسلمين.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ﴾ ولو تأنى هذا المتعجل ورد ما بلغه من أسرار وأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو إلى هديه وسنته بعد وفاته، أو إلى أصحاب الشأن، ممن لهم خبرة بالقضايا العامة، حسب اختصاصهم، قادة أو علماء أو فقهاء أو رجال دولة ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ لعلم القادرون منهم على استقراء الأحداث واستنباط العبرة منها، ما وراء هذه الأخبار والأسرار من أسباب ومسببات ومآلات ومقاصد، وما يرمي إليه مروجوها من أهداف، ولانقشع اللبس وانكشف ما يحيكه المنافقون وبيته المبتلون. وذلك ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ شاع أن النبي الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه، فدخل عليه وقال: أطلقت نساءك؟، قال: (لا)، فقال علي باب المسجد: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطلق نساءه".

لقد كان لنزول هذه الآيات الكريمة بما فيها من كشف لمناورات المنافقين ومكرهم بالمجتمع المسلم قيادة ومجاهدين أثر إيجابي بالغ وفضل عظيم، تراصت به صفوفهم وتحصنت به

وحدتهم، وضعفت به قوة أعدائهم من حولهم، ولذلك امتن الله تعالى عليهم بهذا الفضل الذي شملهم به والرحمة التي أسبغها عليهم فقال عز وجل:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والخطاب في هذه الآية بطريق الالتفات إلى عامة المسلمين من غير المنافقين يبين لهم أن من رحمة الله وفضله أن كشف لهم صفات المندسين في صفتهم وأرشدهم إلى طريق الحق في معاملتهم، ولولا ذلك ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ فضللتم عن الحق ولم تهتدوا إلى سنن الصواب وعات المنافقون فيكم بالفتن ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا في قليل من الأحوال التي تضعف فيها بعض النفوس فتساق إلى الخطأ غفلة أو تسرعا.

لقد عالجت هذه الآيات الكريمة أربعة أمراض قي المجتمعات الإسلامية منذ عهد البعثة النبوية إلى عصرنا هذا وإلى ما يليه ما دام للإسلام والمسلمين وجود على الأرض، هي الخلف بين القول والفعل جينا وخشية مما سوى الله تعالى، والطعن والتشكيك في صاحب الدعوة والتطير منه، وإظهار الطاعة وتبويت العصيان، وبث الأراجيف والإشاعات والأكاذيب في الصف المسلم بغية فتنته وتفتيته، وهي أمراض مصدرها المنافقون بكل فئاتهم، المنافقون جينا أو انتفاعا أو كفرا، أو غيظا من الصادقين وحقدا على الثابتين القابضين على الجمر. وكما تجلى خطرهما وآثارها سابقا، ما زالت سمومها تنخر جسد الأمة وتخرب حركة الصحوة الإسلامية المعاصرة وتعوق مسيرتها، وتُقَدِّمُ قاداتها والعاملين لها قرايين على مذابح الظالمين، من أجل مكسب دنيوي مالا أو جاها أو منسبا، تحت مسميات مموهة وتبريرات متشيطنة، تحوّل بها بعض أغرار الدعوة إلى مسوخ بشرية في طوابير طويلة ينتظرون فئات موائد الفسقة والظالمين، بعد أن كانوا من خيرة الزهاد والعابدین. ولئن كان لكل داء دواء من القرآن الكريم، فقد جعل الحق سبحانه لكل هذه الأمراض المذكورة في هذه الآيات دواءها ما لم تستفحل ويستعص أمرها، أو يهيمن شوكتها على حقل الدعوة فيغتاله ويستأصل جذوره، ويحتاج الأمر حينئذ إلى إعادة بناء جديد، وعلى أرضية مستصلحة، بلبينات لم ينخرها سوس النفاق وأهله، وهو ما عالجه القرآن الكريم في آيات تالية أخرى من سورة النساء تصريحا وتلميحا.

## جرائم المنافقين في حالتي السلم والحرب

قال الله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (84) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (85) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88) وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليًا وَلَا نَصِيرًا (89) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (91) ﴿

أداء الواجب الديني هو قياس الصدق والإخلاص لدى المسلم، على أن يؤديه في المنشط والمكروه، وفيما يحبه ويبغضه، بعزيمة لا لين فيها وجد لا هزل فيه وحزم لا يتخلله الوهن والتردد، راضية به نفسه مصابرا ومسلما تسليما؛ إلا أن محبة الدنيا كثيرا ما تشغل القلب عن ذكر ربه، والعقل عن استيعاب آياته ومنهجه، والنفس عن ذكر الآخرة وحسابها، فينصرف كلية عما يجب عليه، أو يؤديه إن قام به ظاهرا لا باطنا، أو على غير وجهه أو في غير وقته، أو يشتغل بالواجب عن الأوجب، أو ينشغل عنه بما يزعم أنها وسائل إليه تجميعا للأموال أو سعيا للمناصب والجاه، متأولا قوله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك ولا تعجز)...ألخ.

إلا أن الله تعالى قد قطع طريق التردد والمناورة والمراوغة والمماطلة في أداء الواجب، بأن جعله فرديا لا جماعيا، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ الأنعام 94، وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فاطر 18، وجعله نية صادقة وقولا سديدا وعملا صائبا وتسليما قلبيا بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء 65، وجعله نهوضا حازما وعزيمة جادة وقوة في الإيمان والمعرفة بالله والطاعة والبصر والبصيرة والأداء فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة 63، وجعله اختيارا حاسما قاصدا بين الدنيا والآخرة فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هود 16/15، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ الإسراء 19/18، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ الشورى 20.

ولئن حدث أن تخلفت الجماعات عن أداء الواجب فليس ذلك عذرا للآحاد في التخلف عنه، أو التنصل من تبعة القيام به، ومن قبل كان إبراهيم أمة وحده إذ آمن وكفر الناس جميعا، ذلك معنى المسؤولية الفردية في الإسلام وما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ المائدة 105، لذلك عندما منع كفار قريش بالحديبية رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخول مكة قال: ( وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي<sup>[13]</sup>، أو لَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ)، وعندما واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بعد

<sup>13</sup> - السالفة صفحة العنق، وقوله: (حتى تنفرد سالفتي) كناية بانفرادها عن الموت، لأن العنق لا تنفرد

عما يليها من الجسد إلا بالموت.

موقعة أُحدٍ على مناجزة أخرى ببدر في ذي القعدة، وبلغ الميعاد، دعا الناس للخروج إلى بدر الصغرى فكرهه بعضهم لِمَا أَرْجَفَهُ المَرْجَفُونَ وَأَشَاعُوهُ مِنْ كَثْرَةِ عَدَدِ الْعَدُوِّ وَقُوَّتِهِ، فنزل قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ الآية...، يأمره فيه بالنهوض للقتال حين تردد الناس وكرهوه، وذلك بعد أن ذكر في الآيات السابقة قبلها مراءاة المنافقين بالرغبة في القتال ثم بنكوصهم عنه عندما فرض عليهم، وأنكر عليهم سوء خطابهم للرسول عليه السلام والتطير منه وإنكارهم انفراد الله عز وجل بالأمر كله ابتلاء بالخير والشر والأمن والخوف، ووبخهم بإعراضهم عن تدبر القرآن وفهم معانيه ومراميها، وانسياقهم خلف أهوائهم عصيانا ونشرا للأراجيف والشائعات بغية فتنة الصف المسلم وإضعافه، ثم بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عاد للأمر بالقتال فخطب الرسول صلى الله عليه وسلم بطريق الالتفات غير حافل بما يرضعه المنافقون في طريقه من العوائق تشييطا لأصحابه وتبطئة وتخويفا بقوله:

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وإذا أصر المشبطنون على التخلف والمترددون على الخوف والقيود، فقاتل في سبيل الله وحدك غير مكثر بما فعلوا ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ليس عليك شيء من إثم أتباعك إن تولوا عنك، ولست مسؤولا إلا عن نفسك فادفع بها إلى ساحة القتال مطمئنا بنصر الله لك، وما النصر بكثرة العدد والعدة، إن هو إلا من الله، إن شاء نصرك وحدك وإن شاء نصرك ومعك الجيوش والجحافل: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ آل عمران 126. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عند خروجه لغزوة بدر الصغرى وقد آنس من بعض أصحابه ترردا: (والذي نفسي بيده لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدي)، واقتدى به صاحبه الصديق رضي الله تعالى عنه في قتال أهل الردة فقال للصحابة رضي الله تعالى عنهم: "والله لو لم أجد إلا هاتين - يعني ابنتيه عائشة وأسماء رضي الله تعالى عنهما - لقاتلتهم بهما".

إن القتال لإنقاذ المستضعفين من نير الظلم والقهر وريقة الشرك والاستعباد كان بمقتضى هذه الآية الكريمة واجبا على الرسول صلى الله عليه وسلم وقد نهض به خير قيام، لكن عليه أيضا واجبا آخر بمقتضى طبيعة رسالته، وهو تبليغ المؤمنين أمر القتال من ربهم كيلا يقعوا فيما وقع

فيه بنو إسرائيل إذ قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾  
المائدة 24﴾، ولذلك خاطبه الحق تعالى عقب ذلك بقوله:

﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، وَالتَّحْرِيزِ عَلَى الْقِتَالِ هُوَ الْحِصْنُ وَالْحِثُّ عَلَيْهِ وَعَلَى  
مداومته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ الأنفال 65، ولئن كان النبي  
صلى الله عليه وسلم في غنى عن مشاركتهم له في القتال، لأن ربه كفاه أمر عدوه ووعدته بالنصر،  
فإن المؤمنين ليسوا أغنياء عن أجر الجهاد ومراتب الشهداء، كما أن المسلمين كافة بعد رسول  
الله صلى الله عليه وسلم معنيون بهذا التحريض ومطلوب منهم الاستجابة له، لأن طبيعة رسالتهم  
إلى البشرية جعلتهم مستهدفين من أعداء الكفر والضلال في كل عصر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ  
يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ البقرة 217، وليس لهم إلا أن يتأهبوا كما  
يتأهب الأعداء ويقاتلوا كما يقاتل الأعداء، قال عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ  
كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة 36، وقال صلى الله عليه وسلم: (جاهدوا المشركين  
بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم). وذلك سبيلكم لكف شر أعدائكم المتربصين بكم، ولحماية  
أنفسكم من العدوان، وحماية المظلومين والمستضعفين من الاضطهاد والاستعباد، ثم بين الحق  
سببانه علة الأمر بالقتال وهي رجاء كسر شوكة المشركين وكف شرهم فقال:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولفظ "عسى" من أفعال المقاربة والترجي مستعارة  
للإطماع والوعد من الله بالنصر القريب، وإطماع الكريم إيجاب، والوعد منه عز وجل واجب  
التحقق، والآية في ظرف نزولها بشارة بفتح مكة وإعداد له، وقوله تعالى بعدها ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ  
بَأْسًا﴾ تأكيد لتحقيق الرجاء والوعد، أي أنه تعالى أشد قوة وبطشا بالمشركين ﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾  
أي أشد عقابا لهم، ولفظ التكيل من أصل الفعل: نكّل يَنكُلُ نكولاً عن العدو أي جبن، ونكّلته  
عن الشيء: صرفته عنه، والنكال اسم لما جعلته نكالاً لغيره إذا رآه خاف أن يعمل عمله، ونكّل  
به تنكياً إذا جعله نكالاً وعبرة لغيره، يقال نكّلت بفلان إذا عاقبته في جرم أجرمه عقوبةً تُنكّل  
غيره عن ارتكاب مثله، والنكّل هو القيد الذي يمنع الإنسان أن يرتكب الجريمة مرة أخرى، أي  
إن الله تعالى بعذابه للمشركين أشد منعا لهم من العودة إلى العدوان على المسلمين.

وما دام التحريض على القتال يستدعي من المستجيبين له أن ينضم بعضهم إلى بعض في تكتل عسكري متراس، فقد بين الحق تعالى أجر الاستجابة لدعوة الجهاد والتعاون عليه، ووزر المتخلفين عنها والمشككين فيها فقال:

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾  
ولفظ شفع يشفع يدل على مقارنة الشيعتين، من ذلك الشُّفْعُ خلاف الوَثْر وهو ضم الشيء إلى مثله فتقول: شَفَعَهُ شَفْعًا كَمَعَهُ أي كان وترًا فصيرَه زَوْجًا، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ أي: من انضم إلى أخيه وعاونه على الجهاد وصار له شفعا فيه، لأن الشفاعة الحسنة في هذا السياق هي الاستجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالانضمام إلى المقاتلين ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ يكن له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها في الدنيا نصرا وعزا ومغانم، وفي الآخرة أجرا وفيها وجنة عرضها السماوات والأرض. ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ والكفل هو النصيب المساوي، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ الشورى 40 أي: ومن يدع للتخلف عن القتال والتبؤة والتشيط ويحرض على الانضمام للمخلفين والمنافقين يكن له عدل دعوته وزرا وسيئات. وقد نقل الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما معنى آخر للآية هو أن الشفاعة الحسنة أن يشفع المسلم إيمانه بالله بقتال الكفار، والشفاعة السيئة أن يشفع نفاقه بمحبة الكفار وترك قتالهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ والمقيت هو الشهيد والحفيظ والقادر والحسيب والرقيب، أي إن الله شهيد على أعمال الخلق لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم إن كان الشافع يشفع في حق أو في باطل، حفيظ عليه يجازيه بما هو أهله، قادر على إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلى الشافع والمشفوع فيه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

إلا أن النصر في القتال لا يكفي فيه انضمام المؤمنين إلى بعضهم في الصف بالأجساد، وإنما لا بد فيه من أن تأتلف قلوبهم بالمحبة والأخوة الصادقة ولئن كانت تسوية الصفوف واجبة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ الصف 4، فإن تسوية القلوب بالمحبة وأخوة الإيمان أوجب، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال 63، لذلك دلهم

الحق سبحانه على ما يقرب القلوب إلى بعضها في الحرب والسلام وهو تبادل التحية وإفشاؤها بينهم، فقال عز وجل:

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ وتحية الإسلام أن تقول لأخيك: "السلام عليكم"، كما في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ دخل عليه عمير بن وهب قبل أن يسلم فقال: "أنعموا صباحا" وكانت تلك تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ النور 61، وقال عن أهل الجنة: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ الرعد 24/23.

إن تبادل التحية بالسلام بين المؤمنين يحببهم إلى بعضهم، ويخصب بذور التعاون والتآزر في نفوسهم، كما يرفع معنوياتهم القتالية في مواجهة أعدائهم، إذ يخوضون الحرب في حالة من الرضا ببعضهم والثقة بقوة العناصر بينهم، مما شرحه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم).

وقد بين عز وجل في هذه الآية الكريمة أدب السلام بقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ إذا سلم أحد إخوانكم عليكم ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ بأحسن مما سلم به أخوك ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أو ردوا عليه بمثلها لا بأقل منها، ذلك حق المؤمن على المؤمن، وقد جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: "السلام عليك يا رسول الله"، فقال صلى الله عليه وسلم: (وعليكم السلام ورحمة الله)، ثم أتى آخر فقال: "السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله"، فقال صلى الله عليه وسلم: (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته)، ثم جاء آخر فقال: "السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته"، فقال صلى الله عليه وسلم له: (وعليك)، فقال له الرجل: "يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، أتاك فلان وفلان فسلموا عليك فرددت عليهما بأكثر مما رددت علي؟"، فقال صلى

الله عليه وسلم: (إنك لم تدع لنا شيئاً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فرددناها عليك).

هذا ما أرشدنا إليه الكتاب والسنة من أدب يؤلف القلوب ويقربها إلى بعضها ويربطها بالمحبة والأخوة، في حالي السلم والحرب، تحت رعاية الله وعلمه ووعدته بوفير الأجر والثواب بقوله عقب ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ أزلاً وأبداً ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ مُحْصِيَا كُلِّ شَيْءٍ في الكون دقيقاً كان أو جليلاً، ومحاسباً عباده على أعمالهم كلها، وعلى ما أمروا به من الشرائع المتعلقة بنظامهم العام داخلياً وخارجياً، والعمل بمنهج الإسلام المتكامل، بدءاً بأعلى هرم النظام الاجتماعي والسياسي والحربي بكلياته وجزئياته، إلى أدق الآداب الفردية تبادلاً للتحية وإفشاء للسلام، وتأليفاً للقلوب ونشراً للمحبة والتعاون، ورسماً للصفوف في حالي الأمن والخوف، والرخاء والشدة، مجازياً المطيع منهم والعاصي بعدله المطلق الذي لا يبخس حقاً ولا ينقص أجراً ولا يظلم أحداً، ثم علل ذلك بقوله دالاً على تلازم التوحيد والإيمان باليوم الآخر وعدل الله بقوله:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ جواب قسم محذوف، مؤكداً باللام والنون، تقديره والله ليحشرنكم من قبوركم للحساب يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا يتطرق إليه الشك والريب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ استفهام لإنكار أن يكون أحد أصدق من الله تعالى في حديثه وأخباره. قال مقاتل: "نزلت فيمن شك في البعث، فاقسم الله لبعثته". ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر علمه بأحوال الخلق وقدرته على حسابهم عقب تهديداً وتحذيراً من مخالفة أمره بذكر وحدانيته وما كتبه لعباده من الحشر والبعث والحساب.

ثم عاد السياق إلى ضرورة وحدة الصف، ليعالج أسباب الاختلاف بين المسلمين حول الموقف من المنافقين والحكم على تصرفاتهم، لا سيما وأن ناساً منهم استأذنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى البادية للاستشفاء بجوها من أمراض أصابتهم بالمدينة، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة بعد مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، وآخرين رجعوا بثلاث الجيش مع عبد الله ابن أبي يوم أحد، وغيرهم هاجروا إلى المدينة ثم رجعوا بدعوى الاشتياق إلى الأهل

والوطن، وآخرون في مكة أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة، فاختلف المسلمون في إسلامهم والحكم عليهم وطريقة معاملتهم، ورأى البعض أن من الحزم الضرب على أيديهم وإنهاء نفاقهم، ورأى آخرون تركهم ومطاولتهم ما داموا يظهرون الإيمان لعلهم يثبتون عليه ويهاجرون مستقبلاً، فلما اشتد الخلاف في شأنهم أنزل الله تعالى معاتباً من توقف عن الجزم بتكفيرهم قوله:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ﴾ والفتنة: الطائفة والفرقة والجماعة، أصلها من الفاء والهمزة مع حرف علة بينهما وهي كلمة تدل على الرجوع، فتقول: فاءٌ يَفِيءُ فَيْئاً وفُؤوءاً، أي رجع وكأُ رجوعٍ فَيْءٌ، قال الله تعالى: ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ الحجرات 9، أي ترجع إليه، ومنه قيل للظَّل الذي يكون بعد الزوال: فَيْءٌ لأنه يَرْجِعُ من جانب العَرَبِ إلى جانب الشَّرْقِ، كذلك كلمة فئة بمعنى الجماعة مشتقة من الفياء وهو الرجوع، لأن أفرادها متكثرون مع بعضهم في كل شؤونهم. ووزنها الصرفي "فِلة"، حذفوا عين الكلمة وهي الياء من وسطها وعوضوا عنها الهاء. والاستفهام في هذه الآية إنكاري لانقسام المسلمين في أمر المنافقين، ومعناه: ما بالكم يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم انقسمتم فريقين في الحكم على المنافقين؟، والمراد منه وجوب إجراء المنافقين مجرى المجاهرين بالكفر في جميع الأحكام، وإنكار أن يكون للاختلاف في كفرهم مبرر وقد حكم به ربهم تعالى وقال:

﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ من الارتكاس وهو التحول من حال حسنة إلى حال سيئة كالكفر بعد الإيمان، لأن الركب هو رد الشيء مقلوباً، وَقَلْبُ الشَّيْءِ عَلَى رَأْسِهِ، أوردُ أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ. والمعنى: كيف تختلفون في كفر المنافقين والله تعالى تخلى عنهم وردهم عن بابه منكوسين منقلبين على أعقابهم خائبين ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بسبب ما كسبوه من إثم اللّٰحوقِ بالمشركين والاحتيالِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإصرار على الكفر بعدما آمنوا، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ المنافقون 3.

لقد ختم الله على قلوبهم لما أصروا عليه من الكفر والنفاق والخداع وأنتم أيها المسلمون مختلفون في أمرهم ومنقسمون فتنين، تودون أن يتوبوا ويهدوا ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ

اللَّهُ؟﴾ والله طردهم من رحابه، ولا مجال لهداية من ارتد واختار الضلالة وأصر عليها وفرح بها بعد أن آمن، لقد أضله تعالى عن طريق الجنة وهداه إلى طريق النار جزاء ما اكتسب من الآثام ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إلى الجنة. إنهم لم يكتفوا بالكفر في أنفسهم بل انقلبوا محاربين لدعوة الإسلام يريدون استئصال الدين من الأرض وإعادة أهله إلى الكفر، ولذلك عقب تعالى بقوله:

﴿وَدُوًّا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ إن هدفهم الذي يسعون له أن يوقعوا بينكم الفتنة، وأن يردوكم عن دينكم فتعودوا كفارا مثلهم. وهذه الآية من أكثر الآيات تصريحاً بكفر المنافقين، لأن النفاق لم يترك لهم إلا التظاهر بالإسلام، وقلوبهم منطوية على الكفر البواح، ولئن عوملوا أحيانا في الدنيا بظاهر أمرهم حفاظا على السلم الاجتماعي فإن الله تعالى قد بوأهم الدرك الأسفل من النار، قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ النساء 145. ومن كان هذا حالهم:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عليكم ألا تتخذوا منهم أنصارا أو أعوانا أو مستشارين، وألا تثقوا بأحد منهم حتى يهاجروا إلى المدينة مثلكم، واشتراط الهجرة هنا دليل على أن الآية في فريق تخلف في مكة قبل الفتح كان يظهر الإسلام للمسلمين والشرك للمشركين، ولذلك وضعهم الوحي أمام اختبار حاسم، عقب ادعائهم الإسلام هو أن يهاجروا من أرض الكفر ويلتحقوا توثيقا عمليا لإيمانهم بأرض الإسلام وينضموا للجماعة المؤمنة ويخضعوا لنظامها.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن التوحيد مقرونا بالهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ خذوهم أسرى إن تمكنتم منهم واقتلوهم في الحل والحرم إن واجهتموهم في الحرب ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا تجعلوا منهم أحدا متوليا أمرا من أموركم، أو نصيرا لكم في سلم أو حرب.

ولئن كانت الهجرة من مكة إلى المدينة في العهد النبوي واجبة لظروف تتعلق بتأسيس المجتمع الإسلامي الجديد، وضرورة بناء الدولة العقدية المكلفة بهداية الناس وإقامة الشهادة

وإعادة تربية المسلمين بعيدا عن شغب الشرك ومعتقداته وعاداته وتقاليده، ، فإن الهجرة بعد فتح مكة لم يبق لها مبرر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية).

إلا أن طبيعة دعوة الإسلام بمنهجها للحياة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم تستثير أعداءها في كل عصر فيحاولون الإجهاز عليها، كعادتهم دائما مع الرسل وأتباعهم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ إبراهيم 13، وقال: ﴿ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ النمل 56، لذلك نرى أن الهجرة بمقتضى هذه الآية الكريمة، من أرض الكفر ومواطن الاستضعاف والظلم، مستمرة وواجبة في كل حالة يعجز فيها المؤمن عن تأمين دينه ونفسه وأسرته، كما في آيات أخرى من هذه السورة يأتي أوان شرحها بتفصيل.

ثم استثنى الحق سبحانه من أمره بالأسر والقتل لهذه الطائفة من المنافقين ثلاث فئات أفرد لكل منها حكما خاصا، فقال عن الأولى:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ أي الذين يلتحقون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق موادعة ومسالمة أو يلجؤون إليهم، كالذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين هلال بن عويمر الأسلمي من عهد علي أنه لا يُعينه ولا يُعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال.

وقال عن الفئة الثانية: ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ أو قوم جاءوكم إلى المدينة مهاجرين كافين عن قتالكم وقاتل قومهم، وقلوبهم حرجة عن قتال الطرفين، وتعهدوا ألا ينصروا أحدهما على الآخر.

لقد كف الله تعالى عن المؤمنين رحمة بهم وتخفيفا عليهم أيدي هذين الفريقين من المنافقين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ ولو شاء عز وجل أن يسلبهم عليكم لتجرؤوا على قتالكم ولأجلبوا عليكم بخيلهم ورجلهم، وفتحوا عليكم جبهات حربية أخرى، ولكنه تعالى عدلا وإنصافا لهاتين الفئتين كف أيدي المسلمين أيضا عن قتالهما فقال:

﴿فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ﴾ لم يتعرضوا لكم بأذى ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ لم يرفعوا في وجوهكم سلاحا ولم يعينوا عدوكم على قتالكم ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ﴾ وسالموكم فلم يُخَلِّوا بأمنكم بأي وجه من الوجوه ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فإن الله لم يجعل لكم طريقا إلى قتلهم أو قتالهم أو أخذهم أسرى، أي أن كلا الفريقين يعاملان بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة 190.

أما الفئة الثالثة التي استثناها الله تعالى من الأخذ والقتل ما اعتزلوا المسلمين ولم يقاتلوهم أو يعينوا عليهم فهي التي قال عنها جل جلاله عقب ذلك:

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾ طائفة أخرى من المنافقين غير الطائفتين السابقتين، قيل إنهم أسد وغطفان، وقيل بنو عبد الدار ممن كانوا حول المدينة قبل أن يخلص إسلامهم ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا دِينَهُمْ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَدُونَ الْكُفْرَ﴾ كانوا كلما أتوا المدينة أظهروا الإسلام ليؤمنوا المسلمين، وكلما رجعوا إلى قومهم خافوا مخالفتهم فعبدوا الأصنام معهم وهم مذذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿كُلًّا مَّا زُودُوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ والفتنة في هذا السياق كناية عن الاختبار والامتحان، أي كلما أعلنوا لكم إسلامهم وعرضوا على فتنة الاختبار بعودتهم إلى قومهم المشركين لتصهرهم وتكشف ما في أعماقهم ﴿أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ طغى عليهم ضعفهم وفشلوا في الاختبار فلم يثبتوا، وكشفوا للمشركين أحوال المسلمين في حالات السلم والحرب، وانغمسوا بذلك في الكفر البواح مرة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبْ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الحج 11.

هذه الفئة من المنافقين هم الذين قال فيهم الحق سبحانه أيضا: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ البقرة 14/15، وهي من أشد الفئات نفاقا، لما يتميزون به من صفاقة وجرأة وقدرة على التلون والكذب والمراوغة، لذلك أفرد الحق سبحانه حكم معاملتهم وحدهم في هذه الآية بأقوي وأغلظ وأشد تعبير فقال عز وجل:

﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ اعتزال مسالمة لا استعلاء فيها ولا أذى ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ﴾ ويحافظوا على أمنكم وسلامتكم في السر والعلن ﴿وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم وعن الإضرار بكم بأي وجه من الوجوه ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ خذوهم أسرى واقتلوهم إن تمكنتم منهم ﴿حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أنى وجدتموهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ والسلطان لغة ذو معنيين، قوة الغلبة والقهر، وقوة الحجة، والمعنى أن الله تعالى جعل للمسلمين على المنافقين القوة البينة الواضحة بشقيها القهري والحجبي، وعليهم ألا يترددوا في قمعهم إذا ما أخلوا بأحكام هذه الآية.

قد يلاحظ المرء شبهة تناقض في الموقف من المنافقين في هذه الآيات التي تأمر بأسرهم أو قتلهم ما لم يكفوا شرهم عن المسلمين، وبين الأمر بمجرد الإعراض عنهم في الآية 81 السابقة من نفس سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، ولكن التأمل البسيط يكشف أن ما ظنَّ تناقضا ليس إلا اختلافا للحكم باختلاف ظروف ارتكاب جريمة النفاق، وأن الاكتفاء بالإعراض عنهم يكون في حالات السلم والأمن الاجتماعي، أما مؤاخذتهم بالشدّة والحزم فتقتضيها ظروف الحرب التي تخوضها الجماعة المؤمنة دفاعا عن وجودها وسلامة أرضها وأمن أعضائها واستقلالية قرارها. وهو ما يعبر عنه في القوانين الوضعية الحديثة بجرائم الحرب والخيانة العظمى. ولئن كانت هذه القوانين الوضعية أكثر قسوة وشراسة فلم تفرق بين حالات الحرب والسلم في أمر الخيانة العظمى تجسسا للأعداء، أو تخريبا ماديا أو معنويا للأمة، وأدرجتها كلها في عقوبتي الإعدام والمؤبد، فإن الإسلام كان أكثر رحمة وإنصافا، إذ اكتفى في حالات السلم بالإعراض عنهم ومطالبة انحرافهم بالنصح والتوبيخ، حتى إن بعض الصحابة كانوا يهتمون بقتلهم فيمنعهم الرسول عن ذلك، كما حدث إذ أراد عمر رضي الله عنهما قتل رأس المنافقين عبد الله بن أبي فمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال له بعد حين: (أي عمر، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله؟) فقال عمر: "نعم"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والله لو قتلته يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله امتثلوه، فيتحدث الناس أني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبورا).

## جرائم القتل الخطأ والقتل العمد وشبه العمد

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94)﴾

لئن كان ما سبق من سورة النساء قد وضع بتشريعته منهجا متكاملا لبناء أمة غير قابلة للظلم، عصية على الاستضعاف، فإن آيات هذه الحلقة من نفس السورة قد أضافت لبنات أخرى تزيد صرح دولة الإسلام متانة وقوة ومنعة، بما وضعته من نظم تمنع أي انهدام ذاتي مؤد إلى الانهيار والاندثار، وهي بذلك امتداد لمحور السورة العام وتكملة لضرورة لمنظومة حماية الفرد والمجتمع والدولة من تعوّل الفرد والمجتمع والدولة، فلا تطفى جهة على جهة، ولا يستضعف أحد أحدا، كل ذلك من الحق سبحانه رحمة ولطف بالإنسان ومنع له من ظلم نفسه بأشد أنواع الظلم شركا بالله وقتلا للنفس، لذلك حرهما عز وجل معا، فقال عن الشرك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان 13، وقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ الحج 26، وقال عن القتل: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ النساء 29، أي لا يقتل بعضكم بعضا، ثم قرنهما في آية واحدة فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ الفرقان 69/68. وقال صلى الله عليه وسلم: (قتال

المؤمن كفر وسبابه فسوق) وقال: (أكبر الكبائر الإشراف بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وشهادة الزور).

ولئن كان قتل النفس بالحق مأذونا فيه ومأمورا به إذا توفرت أسبابه ومبرراته الشرعية كما في الآيات السابقة وفي غيرها، فإن القتل في غير تلك المواطن لا يعد إلا محاربة للخالق وعدوانا على المخلوق. لذلك ما إن فصل الحق سبحانه أحكام القتل المباح جهادا في سبيل الله أو تطهيرا للصف بقتل المنافقين المحاربين المصريين على تخريب مجتمع المسلمين ما لم يكفوا أيديهم ويجنحوا للسلم، حتى انتقل إلى أحكام عدوان المسلمين على بعضهم وتحريم القتال فيما بينهم.

وما دام الأصل شرعا أن علاقات المسلمين ببعضهم مبنية على المساواة والمحبة والأخوة والتعاون، لا يفرق بينهم لون أو جنس أو وطن أو لسان، فإن الخلاف بينهم مهما اشتد ينبغي ألا يبلغ بهم حد التقاتل، لأن آصرة العقيدة في قلوبهم أقوى وأمتن من أن يغلبها جنوح أو غلو أو مغالاة، أو غضب للنفس أو رغبة في الانتقام أو إثارة أهوج لمصلحة ذاتية، والأصل في المجتمعات المسلمة السوية ألا يقتل المسلم فيها مسلما أبدا إلا أن يكون ذلك خطأ، أما القتل العمد فلا يرتكبه إلا من فقد سواء إيمانه أو سواء عقله ووجدانه. لذلك إتاما لنعمته تعالى على المسلمين، ورحمة ولطفا بهم شرع الوحي الكريم في بيان أحكام القتل في أهم خمس حالات له، ثلاث منها للقتل الخطأ وواحدة للقتل العمد وأخرى لشبه العمد في ساحة الحرب، حفاظا منه تعالى على أمن الفرد والجماعة، وعلاجاً لما ينشأ عن هذه الجرائم من مضر اجتماعية وردود فعل غير سوية، فقال عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ هذه هي الحالة الأولى من حالات القتل المحرم في مجتمع المسلمين، ومقتضاها أن المؤمن لا يقتل أخاه المؤمن، ولا يجوز له قتله أبدا في أي حال من الأحوال إلا أن يكون ذلك نتيجة خطأ غير مقصود. وهو الاحتمال الوحيد لما يمكن أن يقع بين المسلم وأخيه المسلم، لأن عمق الأواصر الإيمانية بينهما ومشاعر المحبة التي تملأ وجدان كل منهما نحو الآخر ومتانة الأخوة التي رباها عليهما الكتاب والسنة تجعل الإقدام على

قتل أي منهما للآخر بعيد الاحتمال إلا أن يكون خطأ، إلا أن عذر الخطأ هذا لا ينفي أن القتل قد وقع فعلا، وأن أقارب القتل تضرروا بفقدته وجدانيا وماديا، وأن القاتل قصر في التحرز من القتل أو أن أهله قصروا في تربيته على الثبوت وضبط التصرفات بما يصون حقوق الغير ويحفظ أمنهم، لذلك كان العلاج الرباني لمثل هذه الحالات ثلاثي الأبعاد يتناول المجتمع الذي فقد أحد أعضائه وتأثرت إنتاجيته، كما يتناول أهل القتل ومصابهم بفقدته، والقاتل وأقاربه كفارة وعقوبة، فقال عز وجل:

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ لقد استبعد الوحي الكريم في هذه الآية حكم القصاص الواجب في القتل العمد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ البقرة 178 وهو حق ولي الدم يأخذه أو يتنازل عنه، كما استبعد أحكام الحدود التي هي عقوبات مقدرة واجبة حقاً لله تعالى كما في حالات الزنا للمحصن وغير المحصن وشرب الخمر وقذف المحصنات، واستعاض بالكفارة عن ذلك كله في حالة القتل الخطأ، وهو ما لا يكون الفاعل قد قصده، كما في بعض حالات المسؤولية التقصيرية، كأن يرمي أحدهم صيدا فيصيب إنسانا، أو يهدم جدارا فيسقط على شخص فيقتله، أو يسوق سيارة في جو رديء الرؤية فيصدم غيره فيقتله.

ولئن أجمع الفقهاء على أن القتل صنفان عمد وخطأ، فإنهم اختلفوا حول وجود وسط بينهما مما أسموه شبه العمد، والإمام مالك لا يقول به إلا في الابن مع أبيه، وعمدته فيما ذهب إليه أن لا واسطة بين الخطأ والعمد، ولا فرق بين أن يقصد القتل أو لا يقصده. أما غيره ممن يثبتونه فعمدتهم أن النيات لا يطلع عليها إلا الله تبارك وتعالى وإنما الحكم بما ظهر. ومن قصد ضرب رجل بعينه بآلة لا تقتل غالبا كان حكمه مترددا بين العمد والخطأ، ويفرقون بين شبه العمد وبين العمد بالآلات التي يقع بها القتل والأحوال التي كان من أجلها الضرب، فعند الحنفية ما كان بأداة لا يقتل مثلها وعند الشافعي ما كان ضربا لم يقصد به القتل فتولد عنه القتل، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألا إن قتل الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا والحجر، ديتنه مغلظة مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها)، إلا أن هذا الحديث مضطرب ولا يثبت من جهة الإسناد فيما ذكر ابن عبد البر.

وقد اكتفى الشرع الحكيم بمقتضى هذه الآية الكريمة في حالات القتل الخطأ كلها بثلاثة أحكام يمثل مجموعها علاجاً شافياً لكل الأطراف المتضررة.

أما المجتمع الإسلامي فقد كان تعويضه عن فقد عضو فيه بتحرير عضو آخر كان أسيراً فأسلم وحسن إسلامه، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ والرقبة لغة هي العنق، من إطلاق اسم الجزء على كله، والمراد به الأسير أو العبد، لأن الغالب عند جميع الشعوب القديمة أن يوثقوا الأسير من رقبته، وهو عادة مقيد الحرية بإرادة آسره، أما تخليصه من أسرهِ أو عبوديته فأطلقوا عليه مصطلحي "فك رقبة" أو "تحرير رقبة"، أي جعله حراً، متمتعاً بكامل حريته، وقد جعل الحق سبحانه بمقتضى هذه الآية تحرير رقبة واحدة كفارة للقاتل وعقوبة مالية له، فإن لم يجد صام شهرين متتابعين كما سيأتي في ختام هذه الآية، وليس عليه إطعام ستين مسكيناً لأنه غير منصوص عليه، وإثباته بالرأي غير جائز.

وأما حق أهل القتل فقد جعل الله تعالى لهم الدية لتهدئة روعهم وتعزيتهم وتخفيف ما فجعوا به بقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ فرضاً واجب الأداء ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ وأصل لفظ يصدقوا: يتصدقوا، فأدغمت التاء في الصاد، والتصدق هو إعطاء الشيء صدقة، قال الله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يوسف 88، أي: إلا أن يعفو أولياء القتل عن الجاني ويتركوا أخذ الدية ويتنازلوا عنها صدقة منهم لوجه الله، وإشاعة لروح التسامح والعفو بين المسلمين.

والدية لغةً من فعل: ودى يدي دية وأدية، يقال وديت القتل إذا أعطيت ديته، وأتديته إذا أخذت ديته. وشرعاً مال من أنعام أو ذهب أو فضة أو أوراق نقدية، يدفع لورثة القتل، تطيباً لنفوسهم وجبراً لمصيبتهم فيه، والاتفاق على أنها تجب في قتل الخطأ وفي قتل العمد إذا كان القاتل غير مكلف كالمجنون والصبي، أو إذا عُفي فيه عن القصاص كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ البقرة

178. أما مقدارها ونوعها فيختلف بين أن تكون عن الخطأ أو العمد أو شبه العمد، بالإل أو الشاء أو البقر أو النقود، على خلاف طويل متشعب بين الفقهاء يرجع إليه في كتب الفقه.

والدية بحكم الشرع في المذاهب الأربعة تعطىها العاقلة<sup>[14]</sup> لورثة القتيل يقتسمونها كسائر الموارث، في أجل أقصاه ثلاث سنين، عملاً بقضاء النبي صلى الله عليه وسلم بدية الخطأ على العاقلة، وبفعل عمر وعلي رضي الله عنهما إذ جعلها على العاقلة في ثلاث سنين. وذلك يشيع روح التعاون والتآزر بين أفرادها، ويشعرهم بالمسؤولية عن بعضهم، ويلزمهم بتحمل جنایات كل واحد منهم، وبتربية أبنائهم وتنشئتهم على السلم وصيانة الحقوق وحقن الدماء وعدم العبث بأمن المجتمع. إلا أن جمهور الخوارج يرون الدية واجبة على القاتل وحده، مثلما وجب عليه عتق الرقبة وحده، لأنه الجاني فعلاً، والعاقلة لم تصدر عنهم جنایة ولا شبه جنایة، فوجب أن لا يتحملوها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الأنعام 164 وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ البقرة 286، ولما روي أن أبا رمثة دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه ابنه فقال عليه الصلاة والسلام: (من هذا؟) فقال: ابني، فقال عليه الصلاة والسلام: (إنه لا يجني عليك ولا تحني عليه) أي: أن أثر جنایتك لا يتعدى إلى ولدك وبالعكس.

وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن حذيفة بن اليمان كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد فأخطأ المسلمون وظنوا أن أباه اليمان واحد من الكفار، فأخذوه وضربوه بأسيا فهم وحذيفة يقول: إنه أبي فلم يفهموا قوله إلا بعد أن قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فلما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ازداد وقع حذيفة عنده، فنزلت الآية.

14 - العاقلة: القرابة التي تعقل عن القاتل؛ أي تعطي الدية عنه، وهم عند مالك: العصابات الأربعة: الأب والجدّ وإن علا، والابن وابن الابن وإن سفل، وقد سميت الدية عقلاً لأنها كانت عند عرب الجاهلية إبلا تعطى لأهل القتيل حقنا للدماء، وكان القاتل يكلف أن يسوق إبل الدية إلى فناء ورثة المقتول، ثم يعقلها بالعقل ويسلمها إلى أوليائه، والعقال جبل يُتَّى به يد البعير إلى ركبتيه فيشدُّ به.

وأن عياش بن أبي ربيعة - وكان أخا أبي جهل لأمه - أسلم وهاجر إلى المدينة خوفاً من أهله وذلك قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليها، فأقسمت أمه ألا تأكل ولا تشرب ولا يأويها سقف حتى يرجع، فخرج أبو جهل ومعه الحارث بن زيد بن أبي أنيسة فأتياه وقال له أبو جهل: "أليس محمدٌ يحثُّك على صلة الرحم؟ انصرفي وبرِّ أمك وأنت على دينك" فذهب معهما فلما أبعدا عن المدينة كتفاه وجلده كلُّ واحد منهما مائة جلدَةٍ، فقال للحارث: "هذا أخي فمن أنت يا حارث؟ لله عليّ إن وجدتكَ خالياً أن أقتلك" ، وقدما به على أمه فحلفت لا يُحلَّ كِنافه أو يرتدَّ، ففعل بلسانه ثم هاجر بعد ذلك، وأسلم الحارث وهاجر فلقية عياش بظهر قُبَاء ولم يشعُر بإسلامه فأنحى عليه فقتله، ثم أُخبر بإسلامه، فأتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : قتلته ولم أشعُر بإسلامه فنزلت ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

هذا إن كان القتل مسلماً في قوم مسلمين ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: كان القتل مؤمناً في قوم كافرين محاربين للمسلمين، مثل أن يسلم بينهم ولا يفارقهم، أو يأتيهم بعدما فارقهم لمهم من المهمات، ولم يعلم القاتل بإسلامه فقتله، وهذه هي الحالة الثانية من حالات القتل الخطأ، أما حكم الشرع فيها: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ فالواجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير. وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية أنَّ جيوش المسلمين كانت تمر بقبائل كافرة، فربما قتل خطأ في حملات الحرب بعض من آمن ولم يهاجر على أنه من الكفار وليس له وارث من المسلمين، فنزلت الآية مسقطة الدية لأنها ميراث، ولا توارث بين مسلم وكافر.

والحالة الثالثة هي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ أي المقتول المؤمن ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ غير مسلمين ولكن ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي عهدٌ مؤقتٌ أو مؤبدٌ، وهم المعاهدون لكم على السلم لا تقاتلونهم ولا يقاتلونكم، كما عليه الدول في هذا العصر من معاهدات وحقوق متبادلة ﴿فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾، فعلى العاقلة دية تسلم لورثته المسلمين إن وجدوا، كما ذهب إليه أبو السعود وبعض المفسرين، لكن نص هذه الآية ورد مطلقاً إلا من كون القتل من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق، وهو ما يعم أهل الكتاب في أرض الإسلام وغيرهم من المعاهدين خارجها، ولم يميز بين أن يكون القتل مؤمناً أو غير مؤمن، مما جعل فقهاء آخرين يأخذونه على إطلاقه،

ويرون أن دية القتل غير المسلم تسلم إلى أهله المعاهدين، حفاظا على ما بينهم وبين المسلمين من المواثيق التي جعلت دماءهم مصونة كدماء المسلمين، ويقوي هذا الاتجاه في تفسير الآية ما ورد من أن النبي صلى الله عليه وسلم ودى بعض القتلى من المعاهدين، ولكن من غير أن يأمر بعق رقاب مؤمنة بعددهم. مما يشير إلى أن هذا التشريع نزل سنة نبوية أولا، ثم أضافت إليه الآية عتق الرقاب المؤمنة.

ثم رجع الوحي الكريم إلى التيسير والتخفيف فقال تعالى:

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ فمن لم يجد رقبة مؤمنة يحررها أو لم يتسع ماله لذلك ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فيجزيه صيام شهرين متتابعين لا يتخللهما فطر إلا لضرورة شرعية كمرض أو حيض، فإن ارتفع سبب الإفطار عاد إلى الصيام متتابعا من جديد ﴿تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي تشريعا منه تعالى لأحكام توبة عباده وتطهيرهم مما قد يرتكبونه من آثام، ولفظ: ﴿توبة﴾ من حروف ثلاثة هي التاء والواو والباء كلمة تدلُّ لغة على الرجوع. يقال تاب من ذنبه، أي رجَع عنه، وقد استعملت في القرآن على ثلاثة أوجه: بمعنى شرع لهم أحكام التوبة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ التوبة 118، وبمعنى الرجوع إلى الحق في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ النور 31، وبمعنى قبول التوبة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة 117، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن قتل خطأ أو عمدا وبما يحقق مصلحة عباده ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشرع إلا ما كان نافعاً ومحققاً للخير في الحال والمآل في الدنيا والآخرة.

والحالة الرابعة هي حالة المسلم يقتل أخاه المسلم عمدا، وهي كبيرة لا ترتكب مع إيمان، لأنها تنكر صريح لآصرة العقيدة بين المسلمين، وعدوان على حرمة أثرها الله بولائه فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ البقرة 257، وقال فيما رواه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب)، لذلك لم يجعل الله لها كفارة من دية مهما بلغت قيمتها، أو عتق رقاب ولو تعددت، أو صيام مهما طال، وأوكل أمر عقابها إلى حساب الآخرة، فقال عز وجل:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وقد جمع الله تعالى في هذه الآية ما لم يجمع في غيرها من التهديد بالخلود في جهنم والوعيد بغضبه ولعنته وعذابه الشديد، ذلك من عذاب الآخرة، أما في الدنيا فقد أوجب للقاتل القصاص حماية للمجتمع وصيانة للنفوس والأرواح عن الاهدار، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ البقرة 178، وقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ المائدة 45، وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ الشورى 40، وقال: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ البقرة 194. ثم بين عز وجل الحكمة منه بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ البقرة 179.

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية أن مقيساً بن صُبابة وأخاه هشام جاءا مسلمين مهاجرين فوجد هشام قتيلاً في بني النجّار، ولم يُعرف قاتله، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بإعطاء أخيه مقيس مائة من الإبل دية أخيه، وأرسل إليهم بذلك مع رجل من فهر فلما أخذ مقيس الإبل عدا على الفهري فقتله، واستاق الإبل، وانصرف إلى مكة كافراً فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم فتح مكة، وقتل بسوق مكة.

أما أولياء القتيل فتطيبوا لخواطريهم وتعزية لهم في فقيدهم جعل لهم أمر تنفيذ القصاص إن آثروا ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ الإسراء 33، وخيرهم بين القصاص وبين العفو والدية، فإن عفوا عن الدية أو جزء منها فلهم ذلك، وأجرهم على الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ البقرة 178. أما عذاب الآخرة فلا ترفعه الدية ولا عفو أولياء الدم، لصرامة الوعيد في حق القاتل، والأمر لله في كل حال.

ولئن كان وعيد قاتل النفس المؤمنة عمدا بالخلود في النار فإن ذلك خاص بمن لم يتب توبة نصوحا، لأن آيات التوبة كلها متضامنة في أنها تجب الآثام، بما في ذلك الشرك والقتل ومطلق الفواحش الأخرى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ

اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿الفرقان 68/70﴾.

كما أن فريقا من العلماء يرون وجوب الكفارة في العمد قياسا على وجوبها في الخطأ، وهو ما ذهب إليه الشافعي وأصحابه، لما رواه أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحبنا لنا قد أوجب - أي أوجب النار-، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: (فليعتق رقبة، يفدي الله بكل عضو منها عضوا منه من النار)، إلا أن هذا الحديث بين الضعف والاضطراب كما ذهب إليه الألباني، والأمر كله لله تعالى في كل حال أولا وأخيرا.

وتبقى الحالة الخامسة من جرائم القتل وهي ما كانت في حالة الحرب مترددة بين الخطأ والعمد، لأن مرتكبها قد تأول الحالة وتسرع بدون تثبت إلى القتل، وهي التي تضمنها قوله تعالى عقب ذلك:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وقد روي في سبب نزولها روايات كثيرة، ولا مانع من تعدد أسباب النزول لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ الآية على أصحاب كل واقعة، من ذلك أنها في شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك وكان قد أسلم ولم يُسلم من قومه غيره، فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم غالب بن فضالة الليثي فهربوا وبقي مرداس لثقتهم بإسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى الجبل وصعد، فلما تلاحقوا وكبروا كبر وقال: " لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم"، فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه، فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجداً شديداً وقال: (قتلتموه إرادة ما معه)، فقال أسامة: "إنه قال بلسانه دون قلبه"، وفي رواية: "إنما قالها خوفاً من السلاح"، فقال عليه الصلاة والسلام: (هلا شققت عن قلبه)، ثم قرأ الآية على أسامة فقال: "يا رسول الله استغفر لي"، فقال: (كيف بلا إله

إلا الله)، قال أسامة: "فما زال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ"، ثم استغفر لي وقال: (أعتق رقبة).

كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مُحَلِّمَ بن جَثَّامَةَ في سرية، فلقبهم عامر بن الأَضْبَط، فحياهم بتحية الإسلام، فرماه محلم بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء محلم في بردين، فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا غَفَرَ اللهُ لك). فقام وهو يتلقى دموعه بيرديه، فما مضت له ساعة حتى مات، ودفنوه، فلفظته الأرض، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له، فقال: (إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم من جرمتكم)، ثم طرحوه بين صدفى جبل وألقوا عليه الحجارة، ونزلت الآية.

وأيا ما كان سبب النزول فإن الآية صريحة في وجوب الثبوت والتبين وتطهير النوايا والنفوس من بقايا عنجهية الجاهلية وجلالفتها وعنفتها وتسرعها في الأحكام وردود فعلها العشوائية في جميع ما يعرض للمؤمن من قضايا وأخبار وحوادث وأحداث، فلا يظلم أو يُظلم، وبخاصة إذا كان بصدد عبادة هي ذروة سنام الإسلام، لا يقبل الله تعالى فيها إلا ما كان خالصا له وحده، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: "أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا شيء له)، أعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا شيء له) ثم قال: (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خطاب منه عز وجل للمؤمنين إذا ما خرجوا للجهاد في سبيل الله، وعبر بالضرب عن الخروج للجهاد لأن الضرب في الأرض هو الذهاب فيها وضربها بالأرجل، للتجارة أو طلب العلم أو السياحة، وقيد الضرب في هذه الآية بالجهاد بقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي لنصرة الدين ونشر كلمة التوحيد والدفاع عن المستضعفين ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتشتوا في الحكم على الناس وتمييز مسلمهم من كافرهم كي لا ترتكبا ما يناقض رسالتكم، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ فإن أحد أظهر قرينة على إسلامه بأن حياكم بتحية الإسلام أو نطق بالشهادتين أثناء القتال أو ركن للسلم واستسلم فتمهلوا

ولا تعجلوا بقتله، لأن أحكام الشرع تناط بالمظان والظواهر، لا بشق القلوب وكشف السرائر، وكل تسرع يؤدي إلى الأخطاء والظلم والفتن، لاسيما في الحروب، وهو ما أكدته آية أخرى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات 6. والمقصود من هذه التوجيهات الربانية المبالغة في تحريم قتل المؤمنين وسفك دمايهم بتأويل ضعيف، كما فعل الصحابي إذ أول إسلام الأعرابي بمجرد الخوف من السيف، لأن النطق بالشهادتين ولا دليل يناقضه كاف في الحكم على الشخص بالإسلام دون حاجة للكشف عما في القلب واستيطان النوايا، لاسيما لدى من يُقبل على الإسلام لأول مرة، فيقبل منه ما أبداه من النطق بالشهادتين، ثم يلحق تعاليم الدين بعد ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها). وقال: (إذا أشرع أحدكم الرمح إلى الرجل فإن كان سناناه عند نفرة نحره فقال لا إله إلا الله فليرفع عنه الرمح).

ثم ويخ الحق سبحانه من ارتكب هذا الفعل وصادر غنيمات القتيل واستاقها بقوله:

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أتجاهدون وتبتغون متاع الدنيا وهو عارض زائل قليل اللبث؟ هذا لا ينبغي أن يصدر ممن خرج في سبيل الله يبتغي الدار الآخرة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ مكاسب كثيرة دائمة في الجنة وثواب جزيل لا ينقطع ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ كنتم على الكفر ونطقتم بالشهادة فقبلت منكم وحقنت دماءكم وأموالكم من غير أن تبش قلوبكم، مثل هذا الرجل الذي نطق بالشهادة وقتلتموه وأخذتم غنمه، وكنتم تستخفون بإيمانكم خوفا من قومكم مثل هذا الرجل في قومه فلما اطمأن إليكم ونطق بالشهادتين تأولتم ذلك وقتلتموه، وكنتم أول عهدكم بالإسلام لا تعلمون من الدين إلا القليل، فمن الله عليكم وأسبغ عليكم فضله وقوى إيمانكم وثبتكم عليه وأعانكم على العمل به، وعلمكم رسوله صلى الله عليه وسلم الكتاب والحكمة، فقتلتم صاحبكم ولم تمهلوه لينهل مما نهلتهم، عليكم أن تتذكروا ماضيكم ففعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم، وأن تقبلوا منهم ظاهر القول، وألا تؤولوا إسلامهم بالخوف من السيف. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فشتبوا في أموركم كلها ولا تتعجلوا في حكم أو تصرف، واحذروا الدماء فلا تسفكوها بالشبهة، فقد كان الخطأ في ترك هذا الرجل خيرا من

الخطأ في قتله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بأعمالك الظاهرة والخفية ونواياكم ما أعلنتم منها وما أسررتكم ﴿خَيْرًا﴾ يعلم مبادئها وكيفياتها ومآلاتها وما تستحقه من ثواب أو عقاب، فاحفظوا أنفسكم ولا تتهافتوا في الدماء وتسارعوا في القتل دون تبيين.

إن التقاتل بين المسلمين مما يخرب جبهتهم الداخلية ويشغلهم بالفتن عن البناء والمدافعة فلا تثبت لهم به قدم ولا تقوم لهم راية ولا تجمع لهم كلمة، ورب قتل رجل واحد خطأ أو عمداً أو تأولاً أو قد نارا لا تكاد تنطفئ، ورب حرب أثارها كلمة منفلتة أو رأي منفلت أو فتوى جاهلة، وما نزل الوحي إلا ليعلمنا الكتاب والحكمة، ومن الحكمة أن يتثبت المؤمن في أمره كله، وألا يقدم على قول أو عمل حتى يتبين رشده من ضلاله، ويتبصر صوابه من غيه، ويتفهم مبتدأه ومنتهاه، ويستيقن منه سلامة دينه ودنياه، في حالات السلم كما في حالات الحرب، وفي ظروف الخوف كما في ظروف الأمن. لذلك أصر الوحي على الكلمة الطيبة ينشرها المسلمون فيما بينهم، والسلم الاجتماعي يعزز أواصرهم ببعضهم، وأخوة الإيمان تؤلف بين قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ الإسراء 53، ولذلك أيضا حرم الحق سبحانه في هذه الآيات الكريمة القتل والتقاتل بين المسلمين ابتداء وانتهاء وجعل لكل ما يقع بينهم كفارة وجزاء.

## الجهاد والهجرة

قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (99) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100)﴾

لا شك أن منهج الإسلام المتكامل مسطور في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، مبناه على الإيمان ومرتكزه على الصدق، لكن ترجمته إلى الواقع لا تتحقق إلا بأمة حية تمشي على الأرض، تتكامل فيها تعاليمه عقيدة صافية وإيمانا صادعا غير هياب ولا وجل ولا متردد. رجالها حمالون لِهَمِّهَا آناء الليل وأطراف النهار، إن نطقوا صدقوا، وإن استنقروا نقرُوا، كل امرئ منهم سَلَمٌ لصاحبه، وصنُو حبيب كُفُو لأخيه، تملأ بشاشة الإيمان قلوبهم اطمئنانا بالقدر خيره وشره، ابتلاء من ربهم واختبارا، إن ضاقت عقولهم الدنيوية بخوف أو فتنة رَفَدَتْهُمْ عقولهم الإيمانية فتولت سياستهم وهزمت جنبهم وأخذت بأيديهم إلى بر النجاة، صدقا مع ربهم، وصدقا في النصح لقومهم، وصدقا في مواجهة البغاة على دينهم، قال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

الأحزاب 23،

ولئن كان الإيمان جوهر حياة المرء في الدنيا والآخرة، بغيره يُكَنَسُ بالموت كما تُكَنَسُ الجيف، ويحرق في الآخرة كما يحرق الحطب، فإن الجهاد في سبيل الله هو قوام الإيمان، عملا

بالقلب يقول للشهوات لا، وللبلاء في طريق الحق مرحبا، وللشهادة مرضاة لله واشوقاه، قال صلى الله عليه وسلم: ( مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النَّفَاقِ ).

وعملا باللسان قولاً صادقا ودعوة صادقة ونصحا لعامة المسلمين صادقا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة 119، وقال: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ المائدة 119.

وعملا باليد بناء وتشبيدا وإصلاحا في حالات السلم، ومدافعة للعدوان وجهادا للعدو في حالات الحرب، ومكافحة لضلال المنافقين وتضليلهم وغش رؤيتهم وفساد تصوراتهم في حالات طغيان الفتن والجهالات، وضعف الرجال وسقوط المروءات. كل ذلك بشير بأن منهج الإسلام للحياة متكامل، لبناته ببيان مرصوص، إن افتقدت إحداها اختل الصرح وأسرع إليه الخراب، وما تجزئة قواعده وتعاليمه والاهتمام ببعضها دون بعض إلا إهدارا لقيمته وجدواه، كما هو بالضبط حال اللبن الحليب إن رمت تجزئته حصلت على مشتقاته وضيعت أصله.

هذا ما سارت عليه سورة النساء وقد كان همها بناء المنهج الإسلامي في الفرد والمجتمع متكاملًا، وفي الدولة الإسلامية قوية مستعلية بإيمانها وعدالة نظامها، عصية على الذل والاستضعاف، لا يقرع لها أنف ولا تهان لها كرامة، فبدأت بضمان حقوق المستضعفين في المجتمعات الإنسانية من كل دين وكل قوم، وحقوق الأيتام والنساء والورثة في كل زمان، مرورًا بنظام للحكم عادل يسوي القوي بالضعيف والغني بالفقير في ظل العقيدة السمحة الرضية، ثم بما يحمي الأمة من المنافقين وكيدهم، ويحمي المسلمين كافة من بعضهم، فلا يقتل بعضهم بعضًا ولا يستضعف أحدهم الآخر، كل ذلك في ثلاث شعب هن ركائز المنهج وقوائمه، شعبة النظام المالي فلا يأكل الناس أموالهم بينهم بالباطل، وشعبة نظام الحكم فلا يبغى بعضهم على بعض، وشعبة الذروة فيه وهي الجهاد في سبيل الله، وتوفير القوة التي تحمي الأمة وتصونها وتدفع عنها غائلة العدو.

ولئن كانت معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بمختلف ضروب القتل ضرورية للمجاهدين كما في آيات الحلقة السابقة، لأن من أحكام الجهاد معرفة من يجوز قتله ومن يحرم قتله، وبيان

الحال في القتل الخطأ والقتل العمد وشبه العمد والقتل بالتأويل الفاسد، وما ينبغي فعله لتدارك مثل هذه الأخطاء والتطهر من تبعاتها، كفارة وعتقا ودية ووعيدا بالعقوبة والعقاب، فإنه تعالى تلافا لما قد ينشأ لدى المخطئين عقب تأديبهم وعتابهم، من إعراض أو تقاعس أو تردد أو خشية وقوع في محذور عقب بذكر الجهاد وفضله وعلو مرتبته، وميز المستجيبين لندائه على القاعدين عنه، ترغيبا فيه وتثبيتا عليه، وحثا على تلبية نداءه والمحافظة على آدابه وأحكامه وتشريعاته، والسعي لنيل أعلى درجاته، فقال تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ هذه الآية الكريمة تتحدث عن طائفتين من المؤمنين تصريحا وطائفة ثالثة تلميحا، أما الطائفة الأولى فهم القاعدون عن الجهاد بغير عذر شرعي، والطائفة الثانية هم المستجيبون لدعوة الجهاد بالمال والنفوس، والطائفة الثالثة هم أصحاب الأعذار الشرعية، ولم تشر الآية لأهل النفاق من المخلفين وقد تحدثت عنهم آيات كثيرة سبقت في سورة النساء نفسها وفي غيرها من سور القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾ النساء 88، وقوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ التوبة 81/82.

أما القاعدون فهم القادرون على القتال ممن أذن لهم الإمام في عدم الخروج اكتفاء بغيرهم، أو قعدوا تاولا لبعض الظروف والحالات، والمراد بهم في هذا السياق من لم يخرج من الصحابة إلى أول تجربة جهادية في الإسلام وهي غزوة بدر التي وافق حدوثها فترة نزول هذه الآية كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، ولم يكن الرسول صلى له عليه وسلم يقصد بخروجه إلا غير قريش يسترجع بها ما صادره المشركون من مال المهاجرين في مكة، لذلك لم يعزم صلى الله عليه وسلم على أحد بالمشاركة، وترك ذلك للرغبة الذاتية المطلقة، فتخلف كثير من الصحابة ولم يخرج معه إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً؛ وقد وصفهم تعالى بصفة الإيمان بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لظفا بهم لما يعلم من صدقهم، وإيدانا بعدم إخلال قعودهم عن غزوة بدر بإيمانهم،

وإشعارا باستحقاقهم الحُسنى لسبقهم إلى الإيمان والنصرة، بقوله تعالى فيما يأتي من الآية: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾، وتمييزا لهم عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الفتح 11.

وأما الطائفة الثانية فهم أولو الضرر الذين استثناهم عز وجل من القاعدين بقوله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة لفظ: ﴿غَيْرُ﴾ بالرفع صفةً للقاعدين ، وقرأ نافع: ﴿غَيْرُ﴾ بالنصب استثناء من القاعدين، وهم ذوو الزمانة من مرض وعرج وعمى وشلل، ممن ذكروا في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ الفتح 17 ويدخل فيهم من ليس له سلاح أو ركوبة إلى ميدان المعركة ولم توفر الدولة له ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ التوبة 92، وقد روي من غير ما طريق عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيته السكينة فوقعت فخذته على فخذي حتى خشيت أن ترضها ثم سرّي عنه فقال: (اكتب)، فكتبت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ﴾، فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى: "يا رسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟" فغشيته السكينة كذلك ثم سرّي عنه فقال: اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ أي: إلا أولي الضرر من الذين يتمنون الخروج للجهاد ولا يستطيعونه، فإن أجرهم يساوي أجر المجاهدين، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من بعض غزواته: (لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، أولئك أقوام حبسهم العذر) وقوله: (إذا مرض العبد أو سافر كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً)، إلا أن مساواتهم بالمجاهدين مشروطة في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ 92/91،

أما الطائفة الثالثة من المؤمنين فهم المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، المجاهدون بأموالهم توفيراً لأدوات الجهاد وتجهيزاً للغزاة وإنفاقاً على جرحى المحاربين وأرامل الشهداء وأبنائهم، ومساهمة مالية في المجهود الحربي العام من غير أن يُعْفُوا من المشاركة عملياً في

القتال ما استطاعوا، والمجاهدون بأنفسهم استرخاها لها في ساحات الوغى، وصبروا على بأساء المعارك وضرائها عند اللقاء، واستبشارا بما وعدوه من ربهم نصرا مؤزرا وفتحا قريبا، أو شهادة تغفر بها الخطايا والذنوب ونقله كريمة إلى حياة هنيئة عند ربهم يرزقون فيها بغير حساب ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران 169.

والجهاد لغة من فعل "جَهَدَ يَجْهَدُ" ويدل على المشقة والطاقة والوسع، من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ التوبة 79، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ﴾ النور 53، أي: حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا بما أمروا به على أبلغ ما في وسعهم. والجهْدُ ما جهَدَ الإنسانَ من مرض أو أمر شاق، والجهاد بفتح الجيم الأرض الصلبة والتي لا نبات بها، والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة، يقال: جهدت رأبي، وأجهدته: أتعبته بالفكر، والجهاد والمجاهدة: استفرغ الوسع والطاقة.

أما الجهاد شرعا فهو مدافعة عدوان الكفر والشرك ومختلف ضروب الانحراف عن الدين ومكافحة الضعف عن القيام بأمر الله في جميع مجالات البناء والتشييد تربية وعلما واقتصادا وصناعة وقوة، من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ الفرقان 52، أي: جاهدهم بالقرآن تبليغا وتفهيما وتوعية وإقناعا ومجادلة بالحسنى جهادا تبليغا فيه أقصى غاية وسعك. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت 69، أي والذين بذلوا أقصى جهدهم في مرضاة الله عبادة ودعوة إلى الأعمال الصالحة ليرشدنهم ربهم إلى سبل الجنة، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألستكم).

لذلك جعل الله تعالى فريضة الجهاد خير عبادة، يبيع فيها المؤمن لربه أعز ما لديه، روحه التي بين جنبيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ التوبة 111، وجعلها أشرف وأعلى وأغلى قرية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المجاهد في سبيل الله مثل الصائم القائم الدائم الذي لا يفتر عن صلاة ولا صيام حتى يرجع)، وقال: (والذي نفسي بيده

لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل)، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أفضل؟ قال: (إيمان بالله ورسوله)، قيل: ثم ماذا؟، قال: (الجهاد في سبيل الله)، قيل: ثم ماذا؟ قال: (حجّ مبرور)، وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دُلّني على عمل يعدل الجهاد قال: (لا أجده، هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدا فتقوم لا تفتر وتصوم لا تفطر)، قال: لا أستطيع.

وقد اختلف الفقهاء حول مشروعية الجهاد في الإسلام ما بين كونه فرض عين أو كونه فرض كفاية، وكاد الإجماع ينعقد على أنه فرض كفاية إن قام به البعض سقط عن الآخرين، فأدى هذا الاجتهاد إلى تكوين جيوش نظامية متعيشة بالخدمة، ساهمت في حماية الظلم والظالمين ونشرت الفساد في مجتمعات المسلمين، وانصرف عامة الأمة إلى الدنيا يلهثون خلفها موكلين أمر حمايتهم إلى جيوشهم النظامية الفاسدة، فحق فيهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم). ولو تأملوا قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ التوبة 36، لعلموا أن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة، أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ التوبة 122 فليس إباحة للتصل من واجب الجهاد ولكنه إعداد علمي له، لا يعفي المتفرغين للعلم من حمل السلاح بأي وجه من الوجوه. بل إن قوله صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق) صريح في أنه فرض عين على كل مسلم ومسلمة، كل منهم مطالب به حسب استطاعته، بالقلب، أو باللسان أو بالمال، أو باليد، لا سيما وقد كان النساء يخرجن مع الرسول صلى الله عليه وسلم في الجهاد، منهن أم عطية وقد غزت سبع غزوات، تداوي الجرحى والمرضى وتصلح الطعام، وأم أنس بن مالك التي قاتلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين حين انهزم عنه الناس، وحري بالمسلمين في هذا العصر إن قامت لهم دولة ألا يتخلفوا عن الجهاد مهما كانت الأعدار

والمبررات، لأن تطور الأسلحة الحديثة والأجهزة الإلكترونية بالغة الدقة يسرت المشاركة في الجهاد الحربي حتى لكثير من الزمنى<sup>[15]</sup> والمعطوبين.

إن الوجوب العيني للجهاد يلزم الأمة كلها بأن تكون مؤهلة له، مدربة عليه، تنتظر كل لحظة أمره، وأن يكون المجتمع الإسلامي بنظمه وصناعاته ومؤسساته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والاجتماعية مجتمعا جهاديا قادرا على الدفاع عن الأمة بتماسكه وانضباطه واستعداده المادي والمعنوي. وهو ما كان عليه المسلمون في العهد النبوي وزمن الخلافة الراشدة، إذ كان يكفي نداء: (يا خيل الله اركبي) لتُسْرَج الخيل وتمتلئ ساحات الجهاد وميادين الاستشهاد، وذلك قبل أن يستبد بهم الملوك ويحكموهم بالسيف والنطع على يد الجيوش النظامية المتعيشة. وهذا لا يعني أن لا يكون للأمة أيضا جيش عقدي طليعة، مواز ومرابط بإزاء العدو في الثغور، متحفز للرد السريع على أي عدوان قبل أن تلحق به جحافل مجاهدي عامة الشعب.

أما ما أصبح يندفع إليه تحت مسمى الجهاد بعض أغرار الشباب المتحمس عدوانا على الأبرياء والمسالمين رجالا ونساء وأطفالا ومرضى، فليس إلا تليسا لبسوه على أنفسهم وليس من الجهاد في شيء. لأن الجهاد الحق لا بد له من دولة تنظمه وتوجهه وتبين وسائله وأهدافه ومراميها، وتنظم فصائله وكتائبه، وتحمل تبعاً لذلك مسؤوليته سلبا وإيجابا.

إن الجهاد في الإسلام لا يعني الفوضى والتسيب والتشردم والمبادرات الفردية التخريبية المتلبسة بلبوسه، ولكنه يعني الانضباط التام بطاعة القيادة المركزية، وبأحكام الشريعة المتعلقة بزواجر العدوان قصاصا وحدا وتعزيرا، وروادع كل استخدام منفلت للسلاح، تباهيا أو ابتزازا أو إرهابا. وقد روي عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لأصحابه ذات يوم وهو مستقبل العدو: (لا يقاتل أحد منكم)، فعمد رجل منهم فرمى العدو وقتلهم فقتلوه، فقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: "استشهد فلان"، فقال: (أبعد ما نهيت عن القتال؟) قالوا: "نعم"، قال: (لا يدخل الجنة عاص)، وفي غزوة تبوك قال صلى الله عليه و سلم: (لا يخرج معنا إلا رجل

<sup>15</sup> - الزَّمَى: جمع زَمِنَ وزَمِنَ مثل جريح وكليم جمع جَرَحَى وكَلَمَى، والزَمِنُ هو المصاب بعاهة أو مرض مُزْمِن يعوقه عن الجهاد.

مُتَّقُو<sup>[16]</sup>، فخرج رجل على بكرٍ له ضعيفٌ فصرعه فمات، فقال الناس: "الشهيد الشهيد" فأمر النبي صلى الله عليه و سلم بلالا أن ينادي في الناس:(الجنة لا يدخلها عاص).

وبعد أن ميز الحق سبحانه بين المجاهدين والقاعدين بالتفاوت في الفضيلة والنصرة والأجر شرع في تفصيل ذلك وبيان كلفه وكميته فقال تعالى:

﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ والدرجة لغة إحدى مراتب البناء تتخطاها القدم صعوداً، ومجازاً الرفعة في المنزلة، وهي في هذه الآية جنس معنوي لا أفراد له، مستعارة للعلو في الفضل ووفرة الأجر، لذلك أعيد التعبير عنها للتأكيد في الجملة بعدها بصيغة الجمع بقوله تعالى: ﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ ﴾ لأنّ الجمع أقوى من المفرد. والمعنى أن الله فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على المؤمنين القاعدين الأصحاء في درجة القرب منه، لاستوائهما في الإيمان والعمل بما دون الجهاد، وفي علو المقام لديه بالجنة لقوله تعالى عقب ذلك: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ أي: كلا الطائفتين تدخلان الجنة مع تفاوت بينهما في الدرجة.

ثم بين الحق سبحانه طبيعة هذه المرتبة التي فضل بها المجاهدين على القاعدين غير أولي الضرر فقال:

﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: ثواباً جزيلاً، ثم فسر هذا الأجر العظيم بقوله عز وجل: ﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾. وقد روي في مقدار الدرجة عن ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من رمى بسهم فله أجره درجة) فقال رجل: يا رسول الله وما الدرجة؟ قال صلى الله عليه وسلم: (أما إنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مائة عام)، وفي الصحيحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن و منه تفجر أنهار

<sup>16</sup> - فرس مُتَّقُو أي: قويٌّ، ورجل مُتَّقُو: ذو دابة قَوِيَّة، وأقوى الرجل فهو مُتَّقُو إذا كانت دابته قَوِيَّة، يقال فلان قَوِيٌّ مُتَّقُو، أي قَوِي في نفسه وقَوِي في دابته.

الجنة). ولئن كانت درجات الآخرة - وهي المقصودة في الآية - مبنية على درجات المؤمن في الدنيا إيماناً وعملاً صالحاً، فإن المجاهدين بالمال والنفوس في أعلى درجات الآخرة، قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الإسراء 21،

وما دام فضل الله عظيماً لا يحيط به إدراك وكرمه لا يحده عطاء فقد شفع هذه الدرجات بما هو أتم للنعمة بقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ تجلى الحق سبحانه على أهل هذه الدرجات باسمين من أسمائه الحسنی، الغفور الرحيم، فأضفى عليهم مغفرة تامة لذنوبهم مهما تعاضمت، ورحمة واسعة لا ينالهم معها رهق أو حزن، زيادة فضل وكرم منه تعالى كما قال في آية أخرى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يونس 26.

ولما تبين الحكم الشرعي في أمر هذه الطوائف الثلاث من المؤمنين، طائفة القاعدين من أولي الضرر، و طائفة القاعدين بدون عذر، وطائفة المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، ممن كانوا زمن البعثة بالمدينة وممن يكونون في كل عصر ومصر، التفت الوحي الكريم إلى طائفة رابعة متخلفة في مكة، أسلمت سرا ولم تهاجر ففتنهم المشركون وأجبروا بعضهم على الردة وعبادة الأصنام، وجندوا كثيراً منهم مكرهين في غزوة بدر ضد الرسول صلى الله عليه وسلم فقتل بعضهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان ناس من أهل مكة قد أسلموا وكانوا مستخفين بالإسلام فلما خرج المشركون إلى بدر أخرجوهم مكرهين، فأصيب بعضهم يوم بدر مع المشركين فقال المسلمون: "أصحابنا هؤلاء مسلمون أخرجوهم مكرهين فاستغفروا لهم"، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ الآية"، وعن عكرمة قال: "كان ناس بمكة قد أقروا بالإسلام فلما خرج الناس إلى بدر لم يبق أحد إلا أخرجوه فقتل أولئك الذين أقروا بالإسلام فنزلت فيهم الآية".

حال هذه الطائفة التي آثرت البقاء تحت سلطة غير المسلمين، تكررت عشرات المرات في تاريخ المسلمين الطويل على أرض الواقع، خلال فترات الضعف والتخاذل والتراجع العقدي

والحضاري الذي انتاب الدولة الإسلامية في الأندلس وجزر الأبيض المتوسط وبلاد البلقان وغيرها، إذ قتل من قتل من المسلمين وهاجر من هاجر وارتد من بقي في حضن الكفار إيثارا للبقاء أو عجزا عن الهجرة، في مثل هؤلاء وأمثالهم يتابع الوحي الكريم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: المسلمون الذين تتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم بأمر الله عند الموت في أي عصر، في عصر البعثة النبوية أو في غيره مما يليه، ولفظ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ اسم جنس يستوي فيه الجمع كما في هذه الآية، والمفرد كما في قوله تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ السجدة 11، وهم رسل الله تعالى الموكلون بموت العباد كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَتُونَ﴾ الأنعام 61، وظلم النفس مطلقا هو أن يفعل المرء ما يضره في دينه ودنياه حالا أو مآلا، والناس في ذلك إما طيبون فتبشرهم الملائكة بالجنة عند الاحتضار: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النحل 32، أو ظالمون أنفسهم فتبشرهم بالجحيم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ 93، أما المراد بظلم النفس في هذه الآية فحرمانها من الحياة الحرة الكريمة في دار الإسلام، بترك الهجرة إليها وإيثار مجاورة المشركين المؤدية إلى الردة والإخلال بالدين في النفس والأهل والولد، وإلى الحياة الذليلة المضطهدة بينهم، ويعني بذلك فئتين إحداهما أسلمت وآثرت البقاء بين المشركين ففتنت وارتدت، وفئة أخرى بقيت في مكة مسلمة ولم تهجر فأكرههم المشركون على الحرب ضد الرسول صلى الله عليه وسلم عليه وسلم بيدر، وكان ممن قتل منهم أبو قيس بن الفاكه، والحارث بن زمعة، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج. وكان ممن أسر العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم أكرهه المشركون على المشاركة في الحرب، وكان في مكة مسلما يكتنم إيمانه، ويرقب حركات قريش واستعداداتها ضد المسلمين ويكتب بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولما تحرك جيشها نحو بدر بعث إليه بتفاصيل ذلك، لذلك

أوصى به أثناء المعركة بقوله للمجاهدين: ( من لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً) [17].

ولئن كان التأكيد بحرف "إِنَّ" مع اسمها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ نذيراً بشناعة ظلم النفس شركاً وتعرضاً للفتنة في الدين بمعاشرة المشركين، وإعانتهم على المسلمين، فإن تمام الجملة بخبر "إِنَّ" كان موقف ملائكة الموت عند تَوَفِّيها لهم وقبض أرواحهم إذ:

﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ سؤال توبيخ وتقريع في النزاع الأخير للمسلمين الذين ارتدوا أو أعانوا المشركين في حربهم على المسلمين، وتساؤل مشحون بالسخرية بهم والتعريض بمصيرهم في النار: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ في أي الفريقين كنتم؟ أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين؟، فيم أفنيتهم أعماركم وماذا كان عملكم؟

وكحال من أيقن بمصيره المشؤوم الذي لا مفر منه يحاولون الاعتذار بالضعف عن الصمود في وجه المشركين بمكة أو العجز عن الثبات على الدين في أي مكان آثروا المقام به لغلبة

---

17 - حضر العباس بن عبد المطلب بيعة العقبة الثانية مظهراً أنه ما زال على دين قومه، مستوثقاً للرسول صلى الله عليه وسلم ممن حضرها سرا من الأنصار، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا رسول الله، دعاني إلى الدخول في دينك أمانة لبوتك، رأيتك في المهد تناغى القمر وتشير إليه بإصبعك، فحيث أشرت إليه مال"، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: حدثني أبي العباس بن عبد المطلب قال: لما بنت قريش الكعبة انفردنا رجلين رجلين ينقلون الحجارة، فكنت أنا وابن أخي، فجعلنا نأخذ أُرْزْنَا فنضعها على مناكبنا ونجعل عليها الحجارة، فإذا دوننا من الناس لبسنا أُرْزْنَا، فبينما هو أمامي إذ صُرِعَ فسعيت وهو شاخص ببصره إلى السماء، فقلت: يا ابن أخي ما شأنك؟ قال نهيئت أن أمشي عريانا، فكتمته حتى أظهر الله نبوته.

الأعداء عليهم وهيمنة الجباية على إراداتهم: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قالوا كنا مكرهين على الكفر في مقامنا بمكة، عاجزين عن اتخاذ موقف حازم رشيد في أمر ديننا ومواجهة استبداد الكفار وتحكمهم في مصائرنا، أذلة يستضعفنا الأقوياء في بلدنا فنهاب سطوتهم ونخاف بطشهم ونحرص على البقاء بجوارهم. وحسبوا قولهم هذا عذراً يبيح ردتهم، أو تخلّفهم عن الهجرة التي فرضت عليهم في تلك المرحلة أو مشاركتهم المشركين في حربهم ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ببدر، إلا أن الملائكة لم يعبؤوا بهذه التعلات الواهية ودحضوها بسؤال آخر استنكاري لشناعة الفعل وفساد الاعتذار: ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟﴾ إن أرض الله واسعة، ومن ضاقت بدينه أرض تحول إلى غيرها طلباً لسلامة الدين والنفس والولد، والله تعالى يقول: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزمر 10، ولكن الحرص على الأموال والمصالح والخوف الوهمي من مفارقة الديار والأوطان، وعدم الثقة بالله الذي أمر بالهجرة وفرضها، جعلهم يمتنعون عن الهجرة ويتمسكون بأرض الشرك والضلال، وقد خلق الله تعالى أرضه لعباده واسعة للهجرة منها وإليها كلما ضاقت بالمؤمن سبل العيش الكريم والقيام بأمر الدين.

ويختتم هذا الحوار الرهيب بالحكم الصارم الذي يصدره الحق سبحانه في حق هذه الطائفة بقوله عز وجل: ﴿فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ﴾ مسكنهم الذي يؤويهم في الآخرة هو: ﴿جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وبئس هذا المأوى الذي يصيرون إليه، والذي أكدته تعالى في سورة أخرى بقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ النحل 29/28.

ذلك لأن الاستضعاف ينبغي أن لا يتخذ ذريعة للركون إلى الاسترخاء والتعاس عن القيام بأمر الله، أو تكأة نلقي عليها تبعات ما يجب علينا نحو أنفسنا أو نحو ديننا وأمتنا فنقحمه عذراً لتقصيرنا أو مبرراً للمحافظة على مكاسب دنيوية لدينا، بتحريم الحلال استضعافاً، أو إباحة الحرام استضعافاً، أو تركية الفساد والظلم استضعافاً. إن الاستضعاف مجرد تسلط على المؤمن من غيره، وليس ضعفاً مهيناً في نفسه أو خنوعاً ذليلاً في شخصيته، أو موافقة للظالمين على ظلمهم أو مسايرة للفسقة على فسقهم، الاستضعاف الشرعي لا يتحقق إلا بخضوع معناه

لضوابط العقيدة وأصول الشريعة، ولا يعمل به إلا بعد انسداد الطرق واستنفاد الوسائل، فيكون لزوم البيت بعيدا عن الباطل ودعاته والفتن وأهلها إن قل الناصر وعجز المرء عن الهجرة وافتقدت السبل إليها. قال صلى الله عليه وسلم: (سيلكم خلفاء من بعدي يعملون بما يعلمون، ويفعلون ما تعرفون، فمن اعتزلهم سلم، ومن كان معهم كان منهم). والله تعالى لم يعذر المستضعفين في طاعتهم أسيادهم الظالمين بل جعل مصير الجميع إلى النار وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سبأ 33

ثم يعود السياق القرآني تحقيقا لعدل الله ورحمته ليستثني من هذا المصير كل العاجزين حقا عن الهجرة بقوله تعالى:

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ وهم العجزة من كبار السن، والعييد والإماء، والمؤمنات اللاتي مُنِعْنَ من الهجرة والصيبة من أبناء المستضعفين، ومن الذين منعوا من الالتحاق بأبائهم المهاجرين، كلهم ليست لهم حيلة يحتالونها للهجرة ولا لهم إليها طريق. وكان منهم عبد الله بن عباس وأمه، وزينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، منعها من الهجرة زوجها أبو العاص بن الربيع وأبي أن يطلقها قائلا: "والله لا أفارق صاحبتى"<sup>[18]</sup>، فلما أسر في بدر أطلق سراحه الرسول عليه الصلاة والسلام بشرط أن يسمح لزينب بالهجرة، فلما وصل إلى مكة أذن لها بذلك.

﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ولفظ "عسى" للترجي والإطماع في عفو الله ومغفرته، وما كان منه تعالى كذلك فهو لليقين. كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفُرَ بِأَسْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ النساء 84، وقد كف الله تعالى بأسهم وهزمهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا﴾

<sup>18</sup> - أبو العاص بن الربيع أمه هالة بنت خويلد وخالته خديجة الكبرى رضي الله عنها، لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم طلبت قريش من أبي العاص بن الربيع أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبي لهب بأختيها فامتنع وقال: "والله لا أفارق صاحبتى".

وكان شأنه تعالى أزلا وأبدا أن يعفو عن المخالفات ويغفر الزلات التي لها أضرار صحيحة، قال عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة 286 وقال: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ النحل 106، وقال صلى الله عليه وسلم: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه).

ويتجاوز النص القرآني هذه الحالة الخاصة من ذوي الأعذار، وقد أمضى حكما عاما بوجوب الهجرة على كل مسلم مستضعف متى وجد أرضا يجهر فيها بعقيدته ويؤدي فيها عباداته ويربي فيها أبناءه على تعاليم دينه غير خائف ولا مضطهد. يتجاوز النص القرآني إلى تقرير وعدين قطعهما الحق سبحانه على نفسه للمهاجرين في سبيله، أولهما:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ والهجرة في سبيل الله تستوجب أن تكون نيتها معقودة على هدف إقامة الدين ونشره والبحث عن ملاذ آمن للعبادة الصحيحة والدعوة الصادقة، وأن يقوم المهاجر بذلك حقا في مهجره، فلا تستلبه أهواء الدنيا وأطماعها ولا يستذله طاغوت آخر فيجبره على تزييف الدين وقول الباطل إرضاء لفلان أو إعلان كما هو مشاهد لدى من ألجأهم ظلم الحكام إلى ظلام الجهل والانحراف وقول الزور طلبا للجاه والمال والسلامة.

إذا صحت هجرة المؤمن ابتداء بالنية الصادقة وانتهاء بالصدق مع الله والصدق في القول والعمل كانت النتيجة الموعودة من الله تعالى أن يجد المؤمن في مهجره ﴿مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ والمراغم من الرأ والغين والميم هو التراب، يقال: أرغم الله أنفه، ثم حُمل عليه الرغم وهو أن يفعل المرء ما يكره، وعندما يعاني المؤمن من الذلة والاستضعاف في وطنه ثم يلجأ إلى العلاج الرباني وهو الهجرة بشروطها الإيمانية اعتقادا وعملا، فإنه سيجد أرضاً يقيض الله له فيها ما يرغم به أنف عدوه، فإن قيص الله له العودة إلى وطنه عاد عزيزا بدينه موفورة كرامته، وإن توفاه الله في الهجرة بموت أو قتل كان أجره على الله غير مقدر بتقدير البشر لوفرتة قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ من يهاجر في سبيل الله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو حي، أو يهاجر لدينه في كل زمان ﴿ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾ ثم يموت في مهجره

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ولفظ "وقع" بمعنى وجب، لأن الوجوب والوقوع يتواردان على معنى واحد كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ الحج 36، أي وقعت على الأرض، وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾... الآية، كتب بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين من أهل مكة، وكان جندب بن ضمرة مريضاً، فدعا أبناءه وقال لهم: احملوني إلى المدينة، فحملوه على سرير، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله وقال: "اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايع عليه رسولك صلى الله عليه وسلم ثم مات فنزلت فيه هذه الآية، إلا أنها تعم أمثاله في كل عصر ولا يخصها سبب النزول. وقد أبهم تعالى أجر الميت في الهجرة وجعله حقا عليه بقوله: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ للإشارة إلى عظم قدره وجزيل مقداره، مثلما أبهم أجر الصيام بقول رسوله صلى الله عليه وسلم: (كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به).

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ غفورا لذنوب المهاجرين رحيمًا بهم، يخفف عنهم محن الغربة ولأواء الهجرة وأشجان فراق الأهل والوطن، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ آل عمران 195.

## صلاة الخوف في السفر والحضر

### أحوال مختلفة وأصل واحد

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (101) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا (103) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)﴾

للهجرة الصادقة من الوعشاء والمشقة ما لا يقدرها إلا من تجرعها، وللغربة في سبيل الله من استضعاف البعيد وتجهم القريب ما لا تتحملة النفوس الرخوة، ولئن فرضها الحق سبحانه على مسلمي مكة بعد أن اشتد عليهم أذى المشركين، وفرضها ملاذا لكل مسلم استضعف في أرض الله فلا يحسبها أحد مرتعا للراحة والاستجمام، بقدر ما هي بلاء ومحنة وأحزان وآلام، ويكفي لوصف شدتها ما روي عن مرض أبي بكر وبلال وعامر بن فُهَيْر في أول هجرتهم إلى المدينة وهذيانهم بالشوق إلى مكة، وعن أُصَيْل الهُدَلِي إذ قدم المدينة فسألته عائشة رضي الله عنها عن مكة فلما أخبرها اغرورقت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: (دع القلوب تَقَرَّ يا أُصَيْل)، ولذلك جعل الحق سبحانه الابتلاء بقتل المرء نفسه أو بالإخراج من بيته والهجرة ابتلاء شديدا يصعب تحمله فقال: ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ النساء 66.

وللجهاد من البأساء والضراء ما لا يعرفه إلا من اقتحمه، وليس الخبر كالعيان، وما الأمر فيه بالصبر والمصابرة والمرابطة إلا لشدة ما يلاقي طالبه ويعاني خائض غماره، وشتان بين قاعد على أريكة بيته يتغنى بآيات الجهاد والقلب خال، أو مزاید بها في سوق النخاسة الحزبية وعينه على منصب لدى فسقة الحكام وأنظمة الجهل والظلم، وبين من يضرب في الأرض الأيام والليالي مهاجرا أو مقاتلا، أو مُجندلا بين كواسر العقبان وضواري السباع.

ولئن جعل الحق تعالى لمن يقدم على الهجرة والجهاد أعظم الجزاء وأوفر الأجر كما ذكر في آيات الحلقة السابقة فإنه أيضا قيض للمهاجرين والمجاهدين رحمة بهم وتخفيفا عنهم من أسلحة الدعاء والاستعانة ما يمكنهم من تحقيق الفوز نصرا أو شهادة، قال أبو طلحة رضي الله تعالى عنه: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فلقي العدو فسمعته يقول: (يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين)، فلقد رأيت الرجال تصرع تضربها الملائكة من بين أيديها ومن خلفها". والمجاهد بذلك مهما أعد من سلاح وبذل من مال ونفس، وأخذ لمنازلة العدو أهبطه، واستنفد وسعه وجهده يظل مقصرا في الإعداد قاصرا عن بلوغ المراد، ما لم يستعن حقا وصدقا برب العالمين وقد قال صلى الله عليه وسلم (احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك). وليس أبلغ في ذلك مما أرشد إليه الحكيم الخبير مرتين في سورة واحدة فقال:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ البقرة 45، أي: استعينوا في كل ما تأتونيه وما تدرونه بالصبر على ما يشق على النفس من مكاره الهجرة والجهاد ومدافعة العدوان، وبالصلاة التي هي أم العبادات ومعراج المؤمنين ومدارج السالكين. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة 153، ثم عقب عليها ببيان المقصود منها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ البقرة 154. فجمع في آيتين متتابعتين من الدين رأسه وعموده وذروة سنامه، وهو ما بينه صلى الله عليه وسلم بقوله: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد)،

وكانت الصلاة بذلك هي الركن الذي لا يفارق الجهاد إلى يوم القيامة، إذ لا يكون جهاد بدون صلاة لأنها عمود الفسطاط بغيرها تنهدم الأركان وتقتلع الأوتاد وينهار البنيان.

وما دام هذا حكم الصلاة، لا تسقط عن صاحبها في سفر أو حضر، في سقم أو عافية في سلم أو حرب فقد جعل الحق سبحانه أحكامها مرنة تسع كل حالات الإنسان المكلف، وتتكيف مع ظروف استطاعته ووسعه إن قائماً أو قاعداً أو على جنبه أو ليس له للقيام بها إلا الإيماء والإشارة. لذلك نزلت أحكامها في القرآن مجملة، أما أوقاتها وأعمالها وأعدادها وتشريعاتها وكيفياتها فقد تكفلت ببيانها السنة النبوية الشريفة، إلا حالة مخصوصة من حالات الصلاة تكفل القرآن الكريم ببيان معظم أحكامها وكيفياتها وهي صلاة الخوف أثناء الجهاد والهجرة ومحاذير الطريق، وكان الانتقال إلى تشريعها في سورة النساء عقب ذكر الجهاد والسعي للخروج من سلطة الكفر، كيلا يدعي مدع أن الفرار أو القتال يمنعانه من أدائها في وقتها، أما سبب نزولها فقد روي عن أبي عياش الزرقني أنه قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرَّتْهم، فقالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر... الحديث)، وقد بدأت هذه الآيات الكريمة ببيان الحالات المبيحة لصلاة الخوف ثم بأحكامها وأعمالها تاركة للسنة النبوية تكييف هذه الأحكام ميدانياً مع ظروف الخوف ومتغيراته، وذلك بقوله عز وجل:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ والضرب في الأرض هو السير فيها مطلق سفر أو تجارة أو هجرة أو جهادا، والجناح هو الحرج والمأثم، والقصر خلاف المدّ يقال: قصرت الشيء أي جعلته قصيراً بحذف بعض أجزائه أو أوصافه، وقصر الصلاة إن أطلق هو النقص من ركعاتها للسفر، ولم ترد أحكامه في القرآن كما في صلاة الخوف، وإنما بينه فعل النبي صلى الله عليه وسلم إذ صلى الرباعية اثنتين، ولم يقصر الصبح كيلا يصير ركعة واحدة فتكون وترا ولا المغرب لثلاثاً تصير شفعاً إن صلاها اثنتين وهي وتر النهار

، أما المراد به في هذه الآية فهو قصر الخوف الذي بينه القرآن الكريم والسنة الثابتة، ويجوز فيه ما لا يجوز في صلاة الأيمن.

هذه الآية امتدادٌ للآيات قبلها في الجهاد والهجرة، وشروعٌ في بيان كيفية الصلاة عند الخوف، وقد بين الله تعالى فيها أن الصلاة لا تسقط بأي عذر. وإنما يخفف منها بقصر كميتها أو كفيئتها فيجوز فيها أثناء الخوف ما لا يجوز في غيرها من صلاة الأيمن، كأن يصلي بعضهم مع الإمام ركعة واحدة ويقف دون تسليم حتى يأتي البعض الآخر فيصلي بهم الركعة الأخرى، وكأن يصلي المجاهدون إيماء عند الالتحام ركباناً أو رجلاً<sup>[19]</sup>، متوجهين للقبلة أو غير متوجهين، كما بين أن القصر المقصود بالآية هو قصر الخوف بقوله تعالى عقب ذلك:

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: إن خاف المسلمون أن يدهمهم العدو أثناء الصلاة أو كانوا في قتال مشروع ضد العدو الكافر أو ضد المسلم المهاجم عدواناً وظلماً، أو في حالة خوف من السباع والضواري وقطاع الطرق وما في حكم ذلك قياساً، فلهم أن يقصروا الصلاة.

وقد ثبتت أحكام صلاة الخوف هذه بالكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب آيات هذه الحلقة من سورة النساء، وقوله تعالى في الآية 239 من سورة البقرة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، ومن السنة ما ورد من أحاديث صحيحة لدى البخاري ومسلم وغيرهما، من ذلك ما أخرجه مالك في الموطأ: أن رجلاً من آل خالد بن أسيد سأل عبد الله بن عمر: "إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر"، فقال ابن عمر: "إن الله بعث إلينا محمداً ولا نعلم شيئاً فإنما نفعل كما رأينا يفعل".

ومن الإجماع أن الصحابة أجمعوا على فعلها، وصلوها في الخوف، جاء ذلك عن علي رضي الله عنه ليلة صفين، وحذيفة في طبرستان، وعبد الرحمن بن سمره في كابل، ولا عبرة بأقوال شاذة تدعي أنها مختصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ونسخت بوفاته مثلما ذهب إليه أبو يوسف ولا

<sup>19</sup> - رجالات: راجلين

حجة له في ذلك، لأن الله قد أمر باتباع السنة النبوية والتأسي بصاحبها عليه السلام وهو القائل: (صلوا كما رأيتموني أصلي).

وتتدرج هذه الصلاة في التخفيف على أهلها من ركعتين بإمام واحد لفوجين من المصلين في السفر وأربع ركعات في الحضر إلى ركعتين أو ركعة واحدة إيماء بغير استقبال للقبلة، ولا يبطلها كلام متعلق بضرورة الحرب عند التحام القتال واشتداد المعركة.

ثم أخذ الوحي الكريم في ذكر أفعال صلاة الخوف مجملة في جماعة، تاركا للسنة مهمة التفصيل والبيان فقال تعالى:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ إذا كنت بين المجاهدين<sup>[20]</sup> وأقمت لهم الصلاة في وقت الخوف ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين أو لهما تقف معك للصلاة، والثانية بإزاء العدو ليحرسوك منه ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي لتحمل الطائفة القائمة معك أسلحتها ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي سجد القائمون معك وأتموا الركعة ﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ أي فلينصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ وهي الطائفة التي لم تصل بعد لوقوفها تجاه العدو من أجل الحراسة ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ الركعة الباقية ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ وليأخذوا الحذر من أي هجوم محتمل للعدو عليهم، وليحملوا أسلحتهم معهم أثناء الصلاة.

ثم عقب الحق سبحانه مبينا علة احتفاظ المصلين بأسلحتهم وهم يصلون فقال:

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ يتمنى أعداؤكم الكفار أن تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم أثناء الصلاة فيهجموا عليكم هجمة واحدة مفاجئة، وينقضوا عليكم بالقتل والنهب. لذلك كان حمل المصلي سلاحه في جبهة القتال أثناء الصلاة واجبا، زيادة في الحذر من العدو واستعدادا دائما لمناجزته، ولا يجوز له وضع السلاح إلا عند الضرورة المرخص بها بقوله تعالى عقب ذلك:

<sup>20</sup> - يقوم قائد الجيش بإمامة الصلاة في غيبة الرسول صلى الله عليه وسلم بموت أو حياة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم أن تضعوا الأسلحة إن أصابكم ضرر من مطر أو مرض، ولا بد في هذه الحالة من أخذ الحذر أيضا ﴿وَأَخَذُوا حِذْرَهُمْ﴾ لأن الغفلة عن كيد العدو غير جائزة، وحمل السلاح أثناء الصلاة واجب، والعدو يراقب تحركاتكم ويتربص بكم الدوائر. ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ عذابا في الدنيا على يد المسلمين ما اتبعوا سنن النصر صدقا وحسن إعداد، وخلودا في نار جهنم وبئس المصير.

لقد بيّن تعالى بقوله ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية، حال الركعة الأولى من صلاة الخوف ولكنه لم يبين حال الركعة الباقية لكل من الطائفتين، إلا أن السنة فصلت ذلك بما رواه صالح بن خوات، عمّن صلى مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع: أن طائفة صَفَّتْ معه، وطائفة وَجَّاهَ العدو، فصلى بالتي معه ركعة، ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا وصَفَّوا وَجَّاهَ العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصَلَّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً، وأتموا لأنفسهم، ثم سلّم بهم.

هذا الشكل من صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع هو أسهل ما روي فيها وأكثر موافقة لهذه الآيات الواردة في الباب، إلا أن اختلاف ظروف الحرب وأسلحتها وشدتها ومواقعها يجعل الثبات على هذا الشكل متعذراً أحيانا، لذلك صلاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأشكال أخرى تبعا لمرونتها وتكيفها مع الأحوال الطارئة والأوضاع المفاجئة.

- من ذلك صلاته في غزوة عسفان لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف فصفنا صفين: صف خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، وقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السجود وقام الصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم، ثم ركع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وركعنا جميعاً،

ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخرًا في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي صلى الله عليه وسلم ، وسلمنا جميعاً.

- صلته قَبْلَ نجد في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم قَبْلَ نجدِ فوزينا العدو، فصاففناهم، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي لنا، فقامت طائفة معه وأقبلت طائفة على العدو، فركع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه وسجد سجديتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاؤوا فركع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ركعة وسجد سجديتين، ثم سلم، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجديتين، وفي لفظ لمسلم: ثم سلم النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة، وفي لفظ لمسلم أيضاً: ثم قضت الطائفتان: ركعة ركعة.

وهذه هي الصلاة التي أخذ بها ابن أبي زيد القيرواني المالكي، إذ قال في الفواكه الدواني<sup>[21]</sup> على رسالة ابن أبي زيد القيرواني: "صلاة الخوف في السفر إذا خافوا العدو أن يتقدم الإمام بطائفة ويدع طائفة مواجهة العدو فيصلي الإمام بطائفة ركعة ثم يثب قائما ويصلون لأنفسهم ركعة ثم يسلمون فيقفون مكان أصحابهم ثم يأتي أصحابهم فيحرمون خلف الإمام فيصلي بهم الركعة الثانية ثم يتشهد ويسلم ثم يقضون الركعة التي فاتتهم وينصرفون. هكذا يفعل في صلاة الفرائض كلها إلا المغرب فإنه يصلي بالطائفة الأولى ركعتين وبالثانية ركعة. وإن صلى بهم في الحضر لشدة خوف صلى في الظهر والعصر والعشاء بكل طائفة ركعتين ولكل صلاة أذان وإقامة وإذا اشتد الخوف عن ذلك صلوا وحدانا بقدر طاقتهم مشاة أو ركباناً ماشين أو ساعين مستقبلي القبلة وغير مستقبليها".

<sup>21</sup> - الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ج 1 ص 34.

- صلاته صلى الله عليه وسلم التي صلى فيها بالطائفة الأولى ركعتين ثم سلم بهم، ثم صلى بالطائفة الثانية ركعتين ثم يسلم بهم؛ لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بطائفة من أصحابه ركعتين ثم سلم، ثم صلى بآخرين أيضاً ركعتين، ثم سلم، ولحديث أبي بكر رضي الله عنه، قال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم في خوفٍ الظهر، فصّف بعضهم خلفه وبعضهم بإزاء العدو، فصلّى بهم ركعتين ثم سلم، فانطلق الذين صلوا معه فوقفوا موقف أصحابهم، ثم جاء أولئك فصلوا خلفه، فصلّى بهم ركعتين، ثم سلم، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربعاً، ولأصحابه ركعتين.

- صلاته صلى الله عليه وسلم بذى قُرد - أرض من أرض بني سليم -، وهي أن يصلي الإمام بإحدى الطائفتين ركعة ثم تذهب ولا تقضي شيئاً، ثم تأتي الطائفة الأخرى فتصّف خلفه ويصلي بهم ركعة ثم يسلم ولا تقضي شيئاً؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بذى قُرد، فصلّى الناس خلفه صَفَّين: صفّاً يوازي العدو، وصفّاً خلفه، فصلّى بالصف الذي يليه ركعة، ثم نهض هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وهؤلاء إلى مصاف هؤلاء فصلّى بهم ركعة أخرى، ولحديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الخوف بهؤلاء ركعة، وبهؤلاء ركعة، ولم يقضوا.

- أما صلاة الخوف في الحضر فجائزة إذا احتاج الناس إلى ذلك عند نزول العدو قريباً من البلد وتؤدى بدون قصر، فيصلّي الإمام الصلاة الرباعية بكل طائفة ركعتين وتتم الطائفة الأولى بالفاتحة في كل ركعة، والطائفة الثانية تتم بالفاتحة وسورة.

- أما صلاة الخوف حال القتال والتحام الحرب، فتصلى على أي حال كان ولو إيماء، رجالاً أو ركباناً، مستقبلي القبلة أو غير مستقبلها، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ البقرة 239، وقد كان ابن عمر - كما قال مالك عن نافع - إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم، أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبلها، ولفظ مسلم: "فإذا كان خوف أكثر من ذلك

فصل راکبًا، أو قائمًا، تومئ إيماء". وهو ما يناسب الحروب الحديثة بتطور أدواتها وأسلحتها ووسائل نقلها في الأرض والجو وأعماق البحار.

ثم إذا قضى المجاهدون خلال المعركة صلاتهم فلا ينبغي أن ينقطعوا عن ذكر الله والاستعانة به لأن ذلك هو السلاح الذي لا يفشل والعدة التي لا تبلى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَرُكُوعًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ اذكروه في أي حال كنتم أثناء القتال، قياما وقعودا وعلى جنوبكم.

فإذا وضعت الحرب أوزارها وحل الاطمئنان في النفوس بدل الروع والفرع والخوف فأقيموا صلاتكم كاملة تامة ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فأدوا صلاتكم بركوعها وسجودها وقراءتها وجميع آدابها وأحكامها مما كان متعذرا في وقت الخوف ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ إن للصلاة أوقاتا يجب مراعاتها وعدم الإخلال بها، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ 239/238.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ لا تضعفوا ولا تكسلوا في طلب عدوكم وقتاله ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ إن كان الجهاد يشق عليكم خوضه وبنالكم بسببه الألم بالتعب والجراح والقتل فإن ذلك يصيب عدوكم أيضا وليس من المروءة والشهامة وقوة الإيمان أن تكونوا أضعف منهم ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وتمتازون عن عدوكم بما ترجونه من وعد الله لكم بالنصر والأجر أو الشهادة وعلو المقام في الجنة، وهو سبحانه لا يخلف وعده ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليما بأحوالكم ومدى إعدادكم وصدق جهادكم وصبركم على مكاره القتال وآلامه، حكيما في إيلائه النصر والتمكين للمجاهدين أو اختيارهم شهداء مع النبيين والصديقين والصالحين.

لقد نهى الله تعالى المسلمين في هذه الآية عن الوهن في طلب أعدائهم وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة غيرها تعالجه من كافة جوانب النفس كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران 140/139، وقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ

مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ محمد 35، وضرب للأمة المثل بطليعة الأنبياء والمرسلين في الصبر والثبات واستعلاء الإيمان ومواجهة الموت في سبيل الله فقال: ﴿وَكَايِّنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّهُ كَثِيرٌ فَلَمَّا هُنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران 146.

إن أعداءكم لا يقصرون في طلبكم وهم على ضلال، فلا تقصروا في طلبهم وأنتم على الحق، وإذا احتل المشركون آلام الحرب وليس لهم إلا جهنم فأحرى بكم أن تحتملوها وأنتم إلى الجنة، ولئن علت أحقادهم عليكم فوق آلامهم فصبروا، فأنتم أولى بأن تربو عقيدتكم على ما تجدون من مشاق الجهاد فتصمدوا ولا تهنوا، وسبيل العصبة المؤمنة دائما أن تحتمل وأمرها دائما إلى خير، حتى الشوكة تشاكها لها بها أجر. وليس للموت الذي يخافه الكافر أدنى أثر في نفوس المؤمنين، لأنه سبيل كل حي، وكتابه لا يؤخر أو يقدم، فطوبى لمن علم وفهم، وسوأى لمن غفل وندم.

## ﴿وَلَا تَكُنْ لِلخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلخَائِنِينَ خَصِيمًا (105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا (109) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (112) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113) لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114)﴾

الأصل في الفصل بين الناس أن يكون بالعدل، وميزان العدل مصدره الله تعالى بما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة، ولو ادعى مدعى أنه قادر على تحقيق العدل مما سواهما لكذبت شواهد المظالم في كل النظم الوضعية منذ شذت البشرية عن منهج الله واستبدت بأمر العامة في مشارق الأرض ومغاربها، بما في ذلك مجتمعات المسلمين الذين استبدلوا قوانين الأرض بمنهج الإسلام وشرائعه، فأصبحوا تحت سنايك الغرب وأحذية الغزاة أذلة مقموعين، خانعين يحسبون كل صيحة عليهم. ولئن كان من أهداف سورة النساء حماية الأمة الإسلامية من عوامل الاستضعاف، فوضعت له مضادات في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والمدافعة هجرة وجهادا ووحدة وتناصرا، فقد كانت خاتمة هذا القسم منها بيانا لمخاطر الخيانة في المجتمع ومفاسد التخاون بين المسلمين، وما يؤدي إليه ذلك من تخريب داخلي لحصونهم، وتهديم لأركان دولتهم، فبدأت أولا بالمحور المشترك الذي تدور حوله الحياة السوية وهو العدل الذي

يعتبر كل خروج عنه خيانة، ليكون مرجع التحاكم وميزان تمييز الحق من الباطل عند كل خلاف أو نزاع أو طغيان جهالة، وذلك بقوله عز وجل:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وعندما يقول القرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ بنون التعظيم فمعنى ذلك أن الله تعالى يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالته بصفات عظمته وعلوه وقدرته وربوبيته وألوهيته خطاباً تكليفياً لا مجال لمخالفته أو التمرد عليه، أما المنزّل فهو القرآن الكريم ﴿الْكِتَابَ﴾، وأما الغاية من الإنزال فتزويد المنزّل إليهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ لا بالباطل، بالحق الذي هو المنهج الرباني الكامل الجامع لكل ما يوفر الحياة الرضية النافعة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة 33، ثم بين مصلحة الناس كافة من هذا الإنزال فقال عز وجل: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي بما علمك الله من أحكام القرآن وما أفاض عليك من فهم وحكمة، وما أرشدك إليه من الحق والعدل بين الناس جميعاً سواء كان المتقاضى لديك مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً.

وفي الآية نذارة وبشارة للمسلمين، أما النذارة فهي أن عليهم أن يتدبروا القرآن ليفهموه فهما نيراً، ويحكموا به بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بغاية الرضا والتسليم، وتام التجرد من أهواء النفس ميلاً إلى قوم أو شئنا لغيرهم، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء 65، وقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ الأنعام 152، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة 8. وأما البشارة فهي إشارته عز وجل إلى أن أمة الإسلام سيمكن لها في الأرض فتدين لحكمها وعدلتها الأمم، وذلك بقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي لتحكم بالعدل بين جميع الناس من مختلف الأديان والأجناس. وهو ما له علاقة بسبب نزول الآية في خصومة بين مسلم من الأنصار وبين يهودي في المدينة، إذ سرق المسلم درعاً فلما طلبت الدرع منه رمى واحداً من اليهود بتلك السرقة، ولما اشتدت الخصومة بين قومه وبين قوم اليهودي جاء قومه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه أن يجادل عن السارق ويلحق السرقة باليهودي البريء، فأطلع

الله رسوله على جليّة الأمر، معجزة له، حتى لا يطمع أحد في أن يروج على الرسول باطلاً، وأمره ألا يقبل قول السارق وقومه ونزلت الآية، فلما افتضح أمر المسلم ظهر نفاقه وهرب إلى مكة مرتداً، ثم نَقَبَ بها حائطاً ليسرقَ أهله فسَقَطَ الحائطُ عليه فقتله. لذلك عقب الحق سبحانه على الأمر بتحكيم كتابه وتحقيق عدالته المطلقة في قضايا الناس كلهم بقوله:

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي لا تكن خصيماً للخائنين، والخصيم من فعل "خَصِمَ" الرجل "يَخْصِمُ" من باب تعب، إذا أحكم الخصومة والجدل في أمر ما، فهو "خَصِمٌ" و"خَصِيمٌ"، والجمع خصماء، وخصمون كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ النحل 4، وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ﴾ الزخرف 58.

وقوله تعالى: ﴿لِلْخَائِنِينَ﴾ واللام في الكلمة للعلة، أي لا تخاصم أحدا للدفاع عن الخائنين، ولا تجادل عنهم فتخفي خيانتهم ويُرْمَى بها غيرهم، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ القصص 86، وقوله عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ القصص 17.

ولفظ "الخائنين" من مادة "خان" بمعنى انتقص، يخون خونا وخيانة وخانة ومخانة. والخاء والواو والنون أصل واحد معناه التقص والضعف، يقال: في ظهره خون أي ضعف، والخون أن يؤتمن المرء فلا ينصح، والخيانة التفريط في الأمانة، وخانه إذا لم يف له، وخان السيف إذا نبا عن الضربة، وخانه الدهر إذا تغير حاله إلى الشر، وناقض العهد خائن لأنه كان يُنتظر منه الوفاء فغدر، ومنه قوله تعالى: ( وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) الأنفال 71. واختانه فهو خائن وخؤون وخَوَانٌ وخائنة ( الهاء للمبالغة مثل نسابة )، ومنه قوله تعالى: ( يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ) غافر 19، أي ما يسارق المرء من النظر نظراً ريبية إلى ما لا يحل له، وقوله صلى الله عليه وسلم: ( إنه لا ينبغي لنبى أن تكون له خائنة الأعين ( . والخيانة والنفاق شيء واحد، لكن الخيانة تقال باعتبار العهد والأمانة، والنفاق باعتبار الدين، وإن كانا يتداخلان في مواطن كثيرة.

فلما نزل القرآن نقل لفظ "الخيانة" إلى معناها المصطلحي المتضمن للغدر والكذب وتزييف الحق وتزوير الوقائع والتجسس وكشف عورات المسلمين وأسرار المجتمع الإسلامي بالفعل والعبارة والإشارة، وهو المعنى الذي يحدد معالم شخصية مريضة حاقدة مضطربة، دنيئة لئيمة، تُطرد من الصف المسلم إن تعذر تقويمها وإصلاحها، معالم طباع لا تركز إليها النفوس الحرة، ولا ترتفع ألبانها الأفواه النظيفه، طباع تركس الأخلاق الفردية والجماعية في الخلل والفساد، من أقصى المعاملات الفردية إلى أقصى نظم الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع، طباع تستوطن بها الخيانة في جميع مناسبات الفرد والجماعة، يخون بها المرء نفسه ما لم ينتفع بعقله ويهذب سلوكه. ويخونها ما استسلم لحلاوة المال أو الجاه أو القوة. ويخونها ما عشي بصره عن عيوبه وخضع قلبه لهواه. ويخونها ما غرت المطامع وأعمته الأمانى. ويخونها ما غلّ عقله بالغضب والشهوة، ويخونه أقرب الناس إليه إن مدحه بما ليس فيه، أو ستر عنه الرشد وسايره فيما يهوى، أو ساتره عيبه وكذبه، أو كان معه في أمر جامع واستبد برأيه عليه.

إن الخطاب في هذه الآية الكريمة للنبي صلى الله عليه وسلم ولكن المراد به الأمة، لأنّ الخصام عن الخائنين لا يتوقع من النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما المراد تحذير الذين دفعتهم الحمية إلى الانتصار لسارق الدرع كما فعل ذلك قومه، ولذلك أمره تعالى بالاستغفار لهم بقوله عز وجل عقب ذلك:

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ استغفر الله لقوم السارق الذين يجادلون عنه، وذكّرهم بمغفرة الله ورحمته لعباده كي تلهمهم التوبة، ذلك خير لهم من الدفاع عن الخيانة، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ النساء 64.

ثم ألقى تعالى إضاءة على حقيقة الخيانة مؤكداً أمره بتحريم المجادلة عن الخائنين بقوله:

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، والجدال لغة شدة المخاصمة، من جدل الحبل إذا فتله، وسميت المخاصمة مجادلة لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يُميل صاحبه عما هو عليه من رأي وبصرفه عنه. وتحريم الجدل دفاعاً عن

الذين يخونون أنفسهم أو يخونون غيرهم واضح من هذه الآية، بالنهي عنه أولاً بحرف "لا"، ثم بما قرره تعالى ثانياً من أن الخائن محط غضبه عز وجل وبغضه إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، وما أعظمه من ذنب يجلب على صاحبه بغض الله، ومن أبغضه الله فقد لعن، ومن الإيمان أن تحب من يحبه الله وتبغض من يبغضه الله، قال صلى الله عليه وسلم: (وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله)، كما أن خيانة المرء لغيره ثالثاً مهما تنوعت لا تخرج عن كونها إثماً يكتسبه لنفسه، ومضرة راجعة عليه في الدنيا بالافتضاح وسوء الذكر، وفي الآخرة بغضب الله عليه ودخوله جهنم.

إن الخيانة وصف عام للمتلبسين بها، ولكن أعمالها وأصنافها كثيرة ومتنوعة، نجملها باعتبار من وجهت ضدهم في أربعة أصناف حددتها هذه الآية، وقوله تعالى في الآية 27 من سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهي خيانة لله عز وجل، وخيانة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وخيانة للأمانة، وخيانة للنفس.

ولئن كانت الخيانة في هذه الأصناف الأربعة كلها خيانة واحدة، لأنها كالأواني المستطرقة، يصب بعضها في بعض، إذ خيانة النفس خيانة لله وللرسول وللأمانة، وكذلك خيانة الله وخيانة الرسول وخيانة الأمانة، فإن ورودها مفصلة في القرآن ومبينة في السنة النبوية يراد به زيادة التوضيح والتحذير والتنبيه والحث على اجتنابها والبعد عن أهلها.

فخيانة المرء ربه تتمثل أول ما تتمثل في الكفر والشرك لأنهما رأس الموبقات، وداخل الصف المسلم يجسدها النفاقان العقدي والعملي بوضوح، وهما إظهار الإيمان والعمل الصالح، وإسرار الشرك والرياء وعدم الوفاء بعهد الله تعالى.

وخيانة المرء للرسول صلى الله عليه وسلم هي عدم الامتثال لأمره ونهيه، وعدم الاقتداء به والتأسي بهديه، وإدخال البدعة في سنته.

أما الأمانة وهي كل ما تُعَبَّدُ به، فتدخل فيها عقيدة الإسلام وشرائعه؛ وبما أن الخون معناه التنقص فإن خيانة الأمانة هي الانتقاص من الشريعة أو تحريف العقيدة، ومن فعل ذلك فقد خان الأمانة، وخان الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم وخان نفسه.

أما خيانة المرء نفسه فإن معناها العام المطلق يشمل أمرين:

- الخيانة الذاتية بأن يرتكب المرء من الآثام اعتقاداً أو قولاً أو عملاً ما يضر به نفسه في الدنيا والآخرة.

- خيانة المرء أتمته، باعتبار أن الأمة من نفس واحدة كما قرر القرآن الكريم ذلك، بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ النساء 1، وبقوله عز وجل لبني إسرائيل وقد قتلوا بعضهم: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ البقرة 85؛ ويخطابه للمؤمنين محذراً من أن يقتلوا أنفسهم بأكل أموالهم بينهم بالباطل بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ النساء 29؛ وأن جماعة المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وخيانتته لهم بانتقاص حقوقهم، أو انتهاك أعراضهم أو سفك دمائهم، أو التجسس عليهم وكشف عوراتهم لأعدائهم، أو خذلانهم في ساعات الضيق والعسرة، والامتناع عن الدفاع عنهم، أو عن بذل النصيحة لهم أمراً بمعروف ونهياً عن منكر، أو عدم دعوة الخلق إلى دين الإسلام.

وتتضح لنا المعاني وتستتير المعالم من تتبعنا لسياق قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، فقد تلاها مباشرة قوله عز وجل:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ يخفون أمر خيانتهم عن الناس ويستترون منهم ويتوارون عن أعينهم حياءً أو خوفاً، والناس لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يستترون من الله خوفاً ولا حياءً ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ والله عز وجل معهم بعلمه وقدرته ورؤيته يعلم سرهم وعلايتهم، ولا وسيلة إلى الاستخفاء منه إلا بترك ما يستقيحُه ويؤاخذُ به ﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ إذ يدبرون ويزورون ليلاً ما لا يرضاه الله تعالى من القول، إشارة إلى قوم سارق الدرع وتبسيثهم تحريف حقيقة الجريمة ورمي اليهودي البريء بها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ محيط بأعمالهم الظاهرة والخفية، يحصي خلجات قلوبهم بالنهار ونجوى أفئدتهم بالليل، لا يعزب عنه منها شيء ولا يفوته منها خبر. وبمقتضى هذه الآية الكريمة يعد مرتكبوا هذا الفعل

منافقين نفاقا عقديا لأنهم يستخفون من الناس ولا يستحيون من الله، ونفاقا عمليا لأن تصرفاتهم تناقض تعاليم الإسلام وإن تظاهروا بالإيمان.

ثم تلاها مباشرة تحذير للمؤمنين من التعاطف مع الخائنين أو مساعدتهم على باطلهم أو المجادلة عنهم بقوله تعالى:

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكانت نتيجة جدالكم عنهم أن افتضحوا وفشلتم في تبرئتهم وأتمتم ﴿فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فمن يستطيع أن يدافع عنهم يوم القيامة، و ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ الحاقة 18، والاستفهام في الآية إنكاري للمجادلة عن الخونة، وتعريض بقوم السارق الذين جادلوا عنه يؤكد الاستفهام الإنكاري بعده وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ من يستطيع أن يكون حافظا للخائنين ومحاميا عنهم من بأس الله تعالى وعقابه، وكأن الآية تقول لهم: "يا من خاصمتم عن السارق، هبوا أنكم خاصمتم عنه في الدنيا، فمن يدافع عنه في الآخرة، إذا أخذه الله بعذابه، ومن هو المستعد لأن يكون وكيلا له يجادل عنه يوم القيامة؟

وبعد هذا التنديد بالخيانة والوعيد الشديد لأهلها والعتاب القاسي للمدافعين عن مرتكبيها يقرر الحق سبحانه القواعد الشرعية التي تضبط وسائل كبجها وطرائق التعامل معها بما يمحو آثارها رحمة وعدلا فيقول تعالى عن القاعدة الأولى وقد فتحت باب التوبة في وجه العصاة وأطمعت كل مذنب تائب في المغفرة:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ فعلا قبيحا يؤدي به غيره ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بما يختص به، شركا أو كبائر أو صغائر ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ بالتوبة الصادقة ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يلق من ربه المغفرة الشاملة والرحمة الواسعة.

وعن القاعدة الثانية وقد قررت فردية الذنب وفردية الجزاء يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ من يرتكب ذنبا عاد عليه وحده ضرره وجزاؤه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الأنعام 164، كل ذلك لا يغيب عن علم

الله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كان سبحانه أزلا وأبدا عليما بخفايا الأقوال والأعمال حكيما في تقدير ما تستحق من العقوبة والجزاء، فليحذر الآثم وليعجل بالتوبة.

وعن القاعدة الثالثة وقد قررت مضاعفة الذنب لمن يرتكب إثما ويرمي به غيره كي يتخلص من تبعاته الاجتماعية أو السياسية أو القضائية في الدنيا، يقول تعالى:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ في حق غيره ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ في حق نفسه ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ ثم ينسب الخطيئة والإثم لغيره بغية تشويه سمعته أو تحميله مسؤولية الفعل ﴿فَقَدْ اخْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ والبهتان هو أن تفتري على غيرك وترميه بأمر منكر هو منه بريء، والإثم المبين هو الذنب العظيم الواضح الذي لا شك في وقوعه، وصاحبهما مذموم في الدنيا ومعرض للعذاب الشديد في الآخرة. لأن خطيئته مضاعفة بارتكابه الذنب أولا، ثم بنسبته ظلما وعدوانا إلى غيره، وقد حرم الله تعالى أذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَسَبُوا فَقَدْ اخْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ الأحزاب 58.

وقد فشا هذا السلوك الخبيث في عصرنا هذا حيث تطورت أساليب الحكام الظالمين وطرائق الأحزاب المتنافسة على السلطة في التخلص من خصومهم بارتكاب الجرائم ونسبتها إليهم، أو بتسخير الإعلام الفاجر لقذف الأبرياء من معارضيهم ومنافسيهم، مما عصف بالعدالة والمروءة والأمن وحوّل الساحة الاجتماعية والسياسية والقضائية داخل الأمة إلى مباءة للفساد والمجاهرة بالفواحش والتآمر على الأبرياء. وكانت مؤامرة قوم سارق الدرع سابقة خطيرة في هذا المجال لو تمت لأدت إلى إضعاف مصداقية النبوة والتشكك فيها لدى اللص وقومه ولدى المتهم البريء نفسه، إذ لو تمت المؤامرة لقالوا جميعا: "لو كان محمد نبيا لما اختلط عليه الأمر ولميز البريء من المذنب"، ولكن فضل الله تعالى تدارك النبي صلى الله عليه وسلم فأنقذه من هذا المكر السيء ونزلت الآية الكريمة عصمة له من الخطأ في التقدير والحكم، وحفظا لعدالته من التزوير ومنة من ربه تعالى عليه بذلك، فقال عز وجل:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ ولولا فضل الله عليك ورحمته لك وعصمته وألطفه بك وما أنزل إليك من أخبار عما تناجت به وبيته طائفة من قوم

السارق، وما عزمت عليه وهمت به من محاولة إضلالك عن الحق لما اهتديت إلى السارق الحقيقي ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهم في الحقيقة لا يضلون ولا يضررون إلا أنفسهم لأن الوزر يعود عليهم خزياً وافتضاحاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ المائدة 49

كل ذلك بفضل ما أنزله الله عليك من القرآن الكريم وحكمة التشريع وفقه مقاصد الدين، وما أولاك به من نبوة وعصمة وحسن رعاية وتعليم وما أفاضه عليك من فضله العظيم: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وهو ما بينته آيات أخرى مثل قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى 52.

لقد كان مكر هذه الطائفة التي بيتت العزم على إضلال الرسول صلى الله عليه وسلم، فتناجت به ليلاً وحاولت تنفيذه بالنهار، مناسبة لكي يتجه الوحي إلى معالجة هذه الظاهرة في الصف المسلم كيلا تستفحل ويتعذر استئصالها، ولذلك عقب الحق سبحانه بقوله:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ والنجوى هي المُسَارَة في الحديث، مشتقة من النجوى، وهو المكان المستتر يخلو فيه المرء إلى صاحبه، والحديث سرا بين اثنين أو أكثر، تقول: ناجى فلان فلانا، وتناجوا فيما بينهم، وانتجوا. والنجوى من أكثر الأحوال العارضة للناس في حالات الخوف والغموض والتأمر والخيانة، لذلك تكرر النهي عنها والتنديد بها في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ المجادلة 8، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ المجادلة 10/9، وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا

مَسْحُورًا ﴿الإسراء 47﴾. وكما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ( إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد)، ولئن كانت النجوى غالبية على أهل الرِّيب والشبهات، لخبث نواياهم وسوء مقاصدهم، وهي بذلك محرمة، فإنها أحيانا تكون مباحة إذا قصد بها الإصلاح واقتربت بحسن النية وانضبطت بأحكام الشرع، وهي الحالات التي استثناها القرآن من التحريم بقوله تعالى عقب ذلك:

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي لا تجوز النجوى والمسارة إلا في ثلاثة مواطن :

عند الأمر بالصدقة والحث عليها، لما فيه من تراحم وتعاون وتكافل بين المسلمين وحفظ لمروءاتهم، لا سيما و (صدقة السر تطفئ غضب الرب)، ومن السبعة الذين يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا تأخذ المأمور عزة بنفسه، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران 104، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادِيُّ﴾ البقرة 206.

وعند الإصلاح بين الناس، عمومهم، مسلمهم وغير مسلمهم، وإن كان المسلمون أولى بإصلاح ذات بينهم لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ الحجرات 8، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ﴾ الحجرات 10، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الأنفال 1، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة).

وكل هذه المواطن التي تجوز فيها النجوى والمسارة داخلية في إطار بذل النصيحة الواجبة على المسلم، إن ناسبها الإسرار كانت إسرارا، وإن ناسبها الإعلان كانت جهارا، قال صلى الله

عليه وسلم: ( إن الدين النصيحة لله و لكتابه و لرسوله و لأئمة المسلمين وعامتهم) وقال: ( المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه).

إلا أنه تعالى اشترط لقبول أعمال النصيحة كلها أن يُبْتَغَى بها وجهُ الله تعالى ومَرْضَاتِهِ بقوله عقب ذلك:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَإِنْ ابْتُغِيَ بِهَا غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى كَانَتْ شُرَكَاءَ صَرِيحًا أَوْ شُرَكَاءَ خَفِيًّا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ) وَقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِيَ شَرِيكًا فَهُوَ لِشَرِيكِي، يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَخْلَصُوا أَعْمَالَكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا خَلَصَ لَهُ، وَلَا تَقُولُوا هَذِهِ لِلَّهِ وَلِلرَّحْمِ فَإِنَّهَا لِلرَّحْمِ وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا تَقُولُوا هَذِهِ لِلَّهِ وَلِوَجْهِكُمْ، فَإِنَّهَا لِوَجْهِكُمْ وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْهَا شَيْءٌ).